

جامعة الأزهر
كلية القرآن الكريم
بطنطا

الرد على ^{المستشرق} ^{اليهودي} جولد تسيهر
في مطالعته على القراءات القرآنية

الدكتور

محمد حسن حسن جبل

أستاذ أصول اللغة بجامعة الأزهر

أستاذ غير متفرغ بكلية القرآن الكريم

العميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله

وصحبه. وبعد ،،

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب الرد على جولد تسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، فيها زيادات كثيرة. ولكنى أحب أن أنوه بأنه مازال هناك الكثير مما يرد عليه من كلام ذلك المستشرق المتعالم. عسى أن ييسر الله تعالى ذلك لى، وأن يتقبله عملاً صالحاً. اللهم آمين. وقد يلحظ القارئ أن هناك ما يشبه التكرار فى محتويات بعض المباحث. وقد اقتضت ذلك محاولة جمع أطراف كل مسألة ضمن إطارها - مع تداخل أطراف المسائل، ولم أسترح إلى إحالة ما تتطلب مسألة ما مواجهته على ما ذكر منه فى مسألة أخرى .

والله المستعان وبه التوفيق ،،

طنطا فى ٢٢ من صفر ١٤٢٣هـ أ. د. محمد حسن حسن جبل

٥ من مايو ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد ..
فقد كان من نعم الله العظيمة على أن أسندت إلى كلية القرآن الكريم بطنطا تدريس مادة دفع المطاعن عن القراءات. القرآنية لطلاب الدراسات العليا بقسم القراءات فلما ردت هذا المجال وجدت أن الأولى بالجهد فيه هو مواجهة مطاعن المستشرقين في القراءات بسبب خطورتها المتمثلة في أمرين (أ) ثقة الشدأة من طلاب العلم بالمستشرقين عامة اغتراراً بما يصفون على مباحثهم من طابع علمي - برغم أن كثيرين من هؤلاء المستشرقين يتخذون غللات علمية ستاراً لأغراضهم غير العلمية؛ (ب) انفلات مطاعن المستشرقين خاصة إلى كل اتجاه بلا حواجز، حتى إنهم يشككون في ماهو من باب البدهيات وذلك تحت اسم حرية البحث .

ثم كان الاختيار هو البدء بمطاعن المستشرق اليهودي المجري إجناتس جولد تسيهر (ت ١٩٢١م) لحدة مطاعنه في القراءات، وقد أخذ بعضها عن المستشرق الألماني ت. نولدكه (ت ١٩٣٠م) ^(١) وعنهما أخذت الموسوعة البريطانية في التعريف بالقرآن ^(٢)، ثم لأنه من أخبث المستشرقين كيداً، حتى إن بعض علمائنا أشادوا به ^(٣) - رغم أنهم لحظوا ملامح كيده .

(١) للتعرف على معالم حياة إجناتس جولد تسيهر، وتيودور نولدكه ينظر الأعلام للزركلي. وعن أخذ الأول عن الثاني ينظر مذاهب التفسير ترجمة د. عبدا لحليم النجار ص ٧ .

(٢) ينظر كتاب قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية... د. فضل حسن عباس (طبعة تتضمن ترجمة دقيقة لنص ماكتب في دائرة المعارف البريطانية (ط ١٩٩٩) عن مادة: القرآن) ص ٢٦٥ - ٢٦٧ - مع المقارنة بمطاعن جولد تسيهر في كتابه الذي نرد عليه .

(٣) عن خبث جولد تسيهر وإشادة بعض علمائنا به ينظر كتاب دفاع عن العقيدة والشرعة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله (ط ٥) ص ٤١-١٦ . وأنا أتفق مع الشيخ الغزالي تماماً في كل مقاله في هذا الكتاب عن جولد تسيهر وعن المستشرقين .

مطاعن جولد تسيهر فى القراءات جعلها فى مقدمة كتابه «مذاهب التفسير الإسلامى». وقد ترجم هذا الكتاب مرتين أولاًهما كانت من عمل الدكتور على حسن عبد القادر، ولم أطلع عليها، لكنى فهمت من تقديم صاحب الترجمة الثانية الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله أن صاحب الترجمة الأولى لم يتمها، رغم أنها طبعت واطلع عليها كثيرون، ورد بعضهم مطاعن جولد تسيهر بناء عليها، وفهمت من تاريخ الردود أنها تمت فى الأربعينيات من القرن العشرين. أما الترجمة الثانية فتاريخها ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، وكما فهمت من دراسة الشذرات المقتبسة من الردود على الترجمة الأولى أنه ليست بين الترجمتين فروق جوهرية فى المطاعن على القراءات. وقال صاحب الترجمة الثانية ما خلاصته أنه بلغ فى دقة الترجمة ما يستطيع معه القارئ أن يتعامل مع الترجمة على أنها صورة صادقة من الكتاب فيقبل أو يرفض ما يشاء من أقوال جولد تسيهر وأحكامه.

أول من رد على مطاعن جولد تسيهر فى القراءات - حسب اطلاعى - هو العلامة محمد طاهر بن عبد القادر الكردى الخطاط (كاتب مصحف مكة المكرمة) وذلك فى كتابه تاريخ القرآن وغرائب رسمه - فى طبعته الأولى ١٣٦٥هـ، والثانية ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م - وقد بنى رده على مقولة جولد تسيهر إن القراءات نشأت عن الاجتهاد الشخصى الحرفى إعجاب الرسم القرآنى وشكله، لأنه كتب أولاً مجرداً من الإعجام والشكل فرد هذه المقولة بأن القراءات كانت أسبق من الرسم. ثم رد الدكتور عبد الوهاب حمودة رحمه الله على مطاعن جولد تسيهر فى كتابه اللهجات والقراءات (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م) رداً علمياً جيداً، ثم رد الدكتور عبد الفتاح شلبى فى كتابه رسم المصحف العثمانى وأوهام المستشرقين ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م رداً مجتزئاً، وكل هذه الردود مبنية على الترجمة الأولى. أما الترجمة الثانية فقد ذيلها المترجم د/ عبد الحليم النجار بتعليقات تعد من أحسن

الردود على مطاعن جولد تسيهر. ثم خصص العلامة الشيخ عبد الفتاح القاضي كتاباً للرد على جولد تسيهر بعنوان القراءات في نظر المستشرقين والملحدين» ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م وفيه جهد طيب مشكور. وضمن الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة كتابه دراسات في مناهج المفسرين (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)، رداً على مطاعن جولد تسيهر أقامه علي تعليقات د. عبد الحليم النجار، كذلك ضمن الدكتور شعبان محمد إسماعيل كتابه «القراءات: أحكامها ومصدرها» (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، والدكتور حسن ضياء الدين العتسر كتابه «الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها» (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م)، والدكتور / ساسي سالم الحاج كتابه «الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية (١٩٩١ / ١٩٩٣ / ١٩٩٧)، والدكتور رشاد محمد سالم كتابه القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ضمن كل منهم كتابه المذكور رداً على مطاعن ذلك المستشرق. ولم أطلع بعد على رد. د. لبیب السعيد، ولا بد أن هناك آخرين لم يصل علمي إلى جهودهم - جزى الله الجميع خير الجزاء .

وأما ردى على مطاعن جولد تسيهر فأحب أن أصارح القارئ أولاً بأننى لم أستوف كل نقاط الرد، كما لم أستوف الكلام تماماً فى النقاط التى تناولتها فعلاً بالرد. وبعض أسباب ذلك أن الرد على تلك المطاعن يحتاج تحقيق جوانب كثيرة خاصة بالقراءات: رواية القرآن شفاهاً وتلقياً، جمعه خطياً فى المرات الثلاث، الأحرف السبعة، علاقة القراءات بالرسم، وبالأحرف السبعة، القرآن فى اللوح المحفوظ، علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة... (وبهذه المناسبة فقد عيّرنا جولد تسيهر بأننا لم نصل إلى تفسير نهائى لحديث نزول القرآن على سبعة أحرف) .

وقد طغى الاشتغال ببعض هذه الأمور على الزمن والجهد المتاحين لإخراج ذلك الرد فاجتزأت في الرد بالخطوط العريضة وبعض التفاصيل، راجياً وداعياً الله سبحانه أن ييسر استيفاء جوانب هذا الرد .

أما المتاح الذي أقدم له بهذا فهو أنني بدأت بعرض ادعاءات جولد تسيهر - مع حرصى على أن ألاحقه حتى فى هذا العرض بما يقدر أنفه ويقلص أظفاره، ثم أتيت بردود إجمالية، ثم بأخرى فيها إلمام بمسائل (موضوعات) كبيرة، ثم بمناقشة تفصيلية لبعض ما أورده جولد تسيهر من أمثله.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد، وأن يوفقنى لإتمامه بالصورة التى أتمناها. اللهم آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

طنطا فى ١٩ من صفر سنة ١٤٢٢هـ . أ.د. محمد حسن حسن جبل

١٣ من مايو ٢٠٠١م . أستاذ أصول اللغة بجامعة الأزهر

أستاذ غير متفرغ بكلية

القرآن الكريم بطنطا

القسم الأول

الادعاءات مع بعض ملاحظات لها

بسم الله الرحمن الرحيم

ألف المستشرق الألماني إجناتس جولد تسيهر كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» لبيان تلك المذاهب . وكان من وجهة نظره أن اختلاف قراءات القرآن الكريم يعد الصورة أو المرحلة الأولى من مراحل تفسير القرآن الكريم . لكن جولد تسيهر لم يقتصر هذه الصورة أو المرحلة الأولى من التفسير على ماسماه دارسو القراءات القرآنية والمفسرون باسم القراءات التفسيرية - ومعظمها زيادات ألحقها بعض الصحابة في أثناء قراءتهم، من أجل بيان المراد في مثل قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ حيث أضاف بعضهم بعدها عبارة «صلاة العصر» بياناً للمقصود بالصلاة الوسطى، ولاعلى ما روي من قراءة بعض الصحابة بكلمات مرادفة لبعض الكلمات القرآنية كالتفسير لها، وإنما توسع جولد تسيهر فجمع معظم صور الاختلاف القراءاتي .

□ ثم إنه في حديثه عن اختلاف القراءات القرآنية هذا استطرد إلى الكلام عن أسباب الاختلافات القرائية . وهنا توهم أو اختلق أسباباً تتمثل في أفكار واتجاهات مذهبية ادّعى هو أنها كانت في نفوس قارئ القرآن الأوائل، وأن أولئك الأوائل استغلّوا خلوّ خط المصحف حين ذاك من النقط والشكل فحوّلوا كلمات النص القرآني في قراءتهم لتعبر عن أفكارهم أو لتدعم اتجاهاتهم .

□ ثم قفز إلى رمي النص القرآني نفسه بالاختلاف وصرح بذلك في فجاجة ولجاجة كما سيأتي قريباً .

□ أراد جولد تسيهر أن يصدر كتابه بمقولة مأثورة فلم يجد إلا «مقاله العالم اللاهوتي التابع للكنيسة الحديشة بيتر فيرنفلس

Peter weren fels قاصداً بكلامه الإنجيل :

«كل امرئ يطلب عقائده في هذا الكتاب المقدس،

وكل امرئ يجد فيه على وجه الخصوص ما يطلبه»

زعماء من جولد تسيهر أن هذا ينطبق على القرآن أيضاً. وقَصَل مايريد أن يقوله بما خلاصته أن كل تيار من التيارات الفكرية الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها ودرجاتها من الصحة قد وَجَدَ - أو حاول أن يجد - لنفسه سنداً من القرآن الكريم، وذلك كما فعلت التيارات الفكرية المسيحية بالنسبة لكتابهم المقدس: الإنجيل وربما التوراة أيضاً. وذلك دليل من وجهة نظر جولد تسيهر على وقوع الاختلاف في القرآن نفسه .

وواضح أن إجناتس جولد تسيهر أراد - بما اقتبس من كلام ذلك اللاهوتي المسيحي عن الإنجيل - أن يطعن على الإسلام والمسيحية معاً في كتابيهما: القرآن والإنجيل. أما الإنجيل فبذلك الاعتراف الصادر من اللاهوتي المسيحي - وإن كان المسيحيون يضمنون التوراة مع الإنجيل في ما يسمونه «الكتاب المقدس» فلاندرى أكانت التوراة مقصودة أيضاً لللاهوتي المذكور حين قال مقولته تلك أم لا - ولكن هذه ليست مبحثنا الآن، وأما القرآن فبإدعاء جولد تسيهر أن اعتراف اللاهوتي المسيحي بالنسبة لكتابه المقدس ينطبق على الكتاب المقدس للمسلمين أيضاً.

□ وهذا الطعن (التمهيدى) الذى بدأ به جولد تسيهر كتابه، مع ما يوهمه هذه التمهيد من اتصاف جولد تسيهر بنظرة فلسفية فوقية وبأستاذية محيطة بالأديان؛ كلاهما يثير تساؤلاً هو: مادام إجناتس جولد تسيهر يبدو على هذه الإحاطة بالمسيحية والإسلام، وهو لابد محيطة باليهودية التى هى دينه، فلماذا لم يوجه جُهدَه أولاً إلى التوراة التى هى كتاب ديانتَه المقدس ليكشف ما يحيط بأسفارها الخمسة الأولى التى هى أقدس ما فيها من غموض هائل .

إن الله أنزل التوراة على سيدنا موسى عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام - وقد كان سيدنا موسى في القرن الرابع عشر قبل

الميلاد. ولكن أقدم مادة للتوراة التى بين أيدينا (أ) ترجع إلى القرن العاشر والتاسع أو التاسع والثامن، وبعضها إلى السابع - قبل الميلاد - أى أن أقدمها وجد بعد سيدنا موسى بنحو أربع مئة سنة (ب) وهذه المادة الأقدم لا يعرف مصدرها تحديداً أو تعييناً، (ج) ولا لغتها، (د) وليست متميزة عن غيرها بل ولا استطاع تمييزها (هـ) لأنها أعيدت صياغتها بواسطة الكهنة، (و) وفى إعادة الصياغة هذه وقع حذف وإضافة وتغيير فى مواضع لا تحصى ٦ مع إضفاء صبغة عامة لاصطناع وحدة للنص - من ناحية، ولبسط اتجاهات الكهنة الذين أعادوا الصياغة ومذهبهم أو مذاهبهم - من ناحية أخرى (ز) ووقع ذلك فى أثناء القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد أى بعد حياة سيدنا موسى بأكثر من سبعة قرون (ح) وهذه المعلومات كلها مأخوذة عن دراسات أوربية متخصصة وبعضها عبرى (١).

فلماذا لم يوجه إجناتس جولد تسيهر مواهبه لكشف الغموض الذى يحيط بمادة التوراة التى أنزل الله على موسى: أين نصوص هذه التوراة تحديداً، وما الذى يوثق نسبتها إلى ما أنزل الله على موسى - عليه وعلى نبينا السلام ؟

□ إن هذا التساؤل ليس مبعثه - فقط - قَدَحْ جولد تسيهر للاشتغال بما يخصه قبل أن يشتغل بما يخص الآخرين، وإنما أيضاً أن ينير

(١) يرجع فى كل ما ذكرناه عن أسفار التوراة الخمسة الأولى إلى (أ) كتاب : مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم. د. محمد خليفة حسن أحمد أستاذ الدراسات اليهودية. ص ٩-٥٤. وقد اعتمد على دراسته هو للعهد القديم بالعبرية، وعلى دراسات أوربية أيضاً كثيرة. ينظر حواشى المؤلف علي الباب الأول من كتابه ص ٢٥٣-٢٥٩.

(ب) «الفكر الدينى اليهودى: أطواره ومذاهبه» د. حسن ظاظا ص ١٤=٢٨. وقد اعتمد على دراسات عبرية وأوربية، وعربية مؤلفوها يهود (ينظر فهرس المصادر ٢٧٧-٢٨٠).

للمتخصصين فى دراسة الأديان الكتابية هذه المسألة الخاصة بالتوراة من مسائل تاريخ الكتب السماوية. إن القرآن جاء «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ»^(١) وأخبرنا الله أن اليهود «يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ»^(٢). وهناك حاجة علمية إلى تحديد ما بَقِيَ وما حُرِّفَ وما نُسِيَ - وهى مسائل قليلة من كثير يتطلب البحث - فلو شغل جولد تسيهر نفسه بتحقيق الأمور التوراتية التى أشرنا إليها قبلاً لأفاد فى هذه المسائل وغيرها، ولكان ذلك أجدى على العلم وعلى البحث العلمى من ذلك اللغو الفارغ الذى ملأ به عشرات من الصفحات صدر بها كتابه «مذاهب التفسير الإسلامى» - مُقيماً ذلك اللغو الفارغ على قَمِشٍ وَحَطْبٍ يتنزه أهل العلم عن تضييع الوقت والجهد فيه .

ولكن هكذا كان قدر إجناتس جولد تسيهر. ولله فى خلقه شؤون. □ أما القرآن الكريم فليس فيه شىء من الاختلاف أو الاضطراب الذى (مهّد) جولد تسيهر لادعائه بذلك الاقتباس الفجّ، كما أن نصه الكريم محفوظ بالتلقى الشّفاهى عن الرسول ﷺ بصورٍ متعددة، وعلى طبقات متعددة كذلك، مع تعيين أشخاص المتلقين فى أهم الطبقات، كما أنه محفوظ الأجزاء (الآيات) بالتدوين الخطى للنص الكريم فور نزولها، وبإملاء النبى ﷺ مع تعيين الكتّبة، ومحمّوظ الجملة بجمعه فى المواد التى كُتِبَ فيها بين يدي النبى ﷺ، ثم بجمعه فى مصحف فى عهد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه، ثم بنسخه فى مصاحف وُرِّعَتْ على الأمصار فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه. وليس فوق ذلك توثيق. فالحمد لله الذى مَنَّ علينا بهذه النعمة الكبرى نعمة حفظ كتابنا من الضياع ومن التحريف. وصدق الله العظيم «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

(١) سورة المائدة ٤٨ .

(٢) المائدة ١٣ .

تهويل صباهت :

بعد ذلك التصدير غير الموفق بدأ جولد تسيهر كتابه بعبارة « تتمثل المرحلة الأولى لتفسير القرآن، وأوائل هذا التفسير الصالحة في «إقامة» النص نفسه ». وهى بداية تَشَى بهدف أساسى تبنّاه وهو اتهام النص القرآنى بما يستدعى تلك الإقامة وهو الاعوجاج الذى يقصد به هنا الاضطراب والاختلاف. وكان مقتضى الحال أن يقول - التزاماً بموضوعه - إن المرحلة الأولى تتمثل فى اختلاف قراءات القرآن ثم يأتى بالأمثلة وتحليلها، لكنه انحرف عن موضوعه إلى محاولة إثبات الفكرة التى تطوع بإقحامها على بحثه رغم رَيفها. واتخذ لذلك الإثبات سبيل تكرار التعبير عنها بما يشبه هَذَيان المحموم، وأصبح التكرار المبالغه والتهويل ليصل بالأمرين التكرار والتهويل إلى إثبات ما لأصل له .

□ لقد عبّر جولد تسيهر عما سماه اختلاف النص القرآنى واضطرابه ست عشرة مرة فى ثمانية وعشرين سطرًا متوالية. وأحد هذه التعبيرات هو ما أسلفناه من كلامه عن «إقامة» النص، وثانيها أشبه بالكنائى وهو ما صدر به كتابه هذا من أن كل تيار فكرى إسلامى اتخذ من النص القرآنى سنداً له. ومادامت التيارات الفكرية كثيرة ومختلفة فلا بد أن تكون أسنادها مختلفة غير منسجمة أو متسقة بعضها مع بعض. ومادامت هذه الأسناد مأخوذة من النص نفسه فإنه يكون هو غير منسجم أو متسق بعضه مع بعض، وعدم الانسجام والاتساق هو صورة واضحة من اضطراب النص .

ثم هناك بضعة عشر تعبيراً صريحاً عن المعنى نفسه:

أ - كأن يقول ما خلاصته إنه ليس هناك كتاب تشريعى تعتقد طائفة دينية أنه مَوْحَى به يقع فى نصه الاضطراب وعدم الثبات كما يوجد فى القرآن .

ب - وكأن يقول إن الميل إلى التوحيد العَقْدِيّ للنص لم يُحَرِّزْ - طوال التاريخ الإسلامى - إلا انتصارات طفيفة»

ج، د وإن دقة النظام العقدي، والتماثل والانسجام (الذى يفترض أن يكون سارياً ومتغلغلاً فى أثناء النص الواحد) هى أمور ليست من خصائصه، ولم تبرز للأمام إلا فى مراحل متأخرة .

هـ - وكأن يعود ليقول إن مجرد «الميل إلى توحيد النص الأصلى هو أمر غريب على الإسلام» .

و - ثم يعود ليصوغ فقرة يبدوها بقوله «ليس هناك نص مُوَحَّد للقرآن» ويحشوها بتعبيرات تصف القرآن الكريم بالاختلاف والاضطراب ؛

ز - «نلمح فى صياغته المختلفة» .

ح - «هو غير مُوَحَّد فى جزئياته» .

ط - «رواية كلام الله على صور متغيرة» .

ى - «تداوله فى فروض العبادة على نَسَق غير متفق» .

ك - «قراءات.. تختلف اختلافاً ليس دائماً من نوع عادم الأهمية» .

ل - ثم يتكلم فى الفقرة نفسها عن «الميل إلى التسامح فى اختلاف القراءات» .

م - وعن «عدم استبعاد القراءات المختلفة» .

ن - وعن «اعتماد أصالة كل هذه الروايات المختلفة» .

فانظر إلى هذا التكرار المكثف الملتاث: أربع عشرة مرة صريحة - عدا المرتين الأوليين بعضها فيه مبالغة فجّة تعنى أن القرآن أكثر اضطراباً نصوص من أى كتاب دينى آخر.

وكل هذه اللجاجة توحى أنه ليست هناك أية جملة فى قراءة للنص القرآنى تُماثلُ نظيرتها فى قراءة أخرى - وذلك فى حين أنه سوف يتبين بالدراسة العلمية أن اختلاف القراءات فى كلمات القرآن اختلافاً

ذا قيمة فى المعنى لا تبلغ نسبته نصفاً فى الألف-أى أن القارئ لا يجد كلمة تختلف قراءتها اختلافاً من النوع المذكور إلا كل ألفين ومئتين كلمة. وبلغت الصفحات كلمة كل عشر صفحات أو تسع، ومع ذلك يتلاقى معنياً الكلمة ومخالفتها، ثم يأتى ذلك المستشرق ويقول إن النص القرآنى غير موحد. أئى بهت وأئى جرافية فى التعبير !!

بعد تلك اللجاجة المحمومة فى ادعاء أن النص القرآنى قراءاته غير موحدة: انتقل جولد تسيهر إلى ماعدّه سبباً لاختلاف النص القرآنى. فزعم أن قسماً كبيراً من الاختلافات فى النص القرآنى ترجع نشأته إلى خصوصية الخط العربى. وهو يعنى بذلك أن الخط العربى كان فى عهد البعثة خالياً من الإعجام بالنقط ومن الشكل بالحركات، وبذا فإن رسم الحرف الواحد يقبل عدة احتمالات .

فمثلاً رسم الباء يئنة فى أول الكلمة أو وسطها يجعلها تحتل أن تكون تاء أو ثاء أو نوناً أو ياء، وكذلك يحتل الحرف أن يكون مفتوحاً أو مضموماً أو مكسوراً أو ساكناً. وعلى ذلك فإن رسم الكلمة يحتل أن يقرأ كلمة أو كلمات أخرى غيرها. وعلى ذلك فإن تعيين القراءة المقصودة للكلمة يرجع - حسب مقتضى كلام جولد تسيهر- إلى اجتهاد القارئ أى اختياره إحدى القراءات المحتملة حسب رأيه أو هواه .

ثم إن جولد تسيهر جاء بأمثلة تطبيقية لكلامه هذا بلغت سبعة وأربعين مثلاً وزّع كثيراً منها على ما زعم أنه المؤثرات أو الدواعى (الأسباب) التى دعت قُرّاء القرآن الأولين لاختيار قراءه مادون غيرها مما يحتمله الخط - أى أن القراءات كانت اجتهادية تبع الرأى أو الهوى (مزاعم مركبة) .

ونظراً لخلطه ما بين سبب اختياره من تلك القراءات حسب زعمه مع ما لم يبين له سبباً فسند ذكر تلك الأمثلة بإيجاز وبالترتيب الذى ذكره. فنذكر القراءة التى فى المصحف والأخرى التى ذكرها هو وسبب الاختيار الذى زعمه بإيجاز شديدة توطئة لتفنيد مزاعمه .

- ١ - الأعراف (١) ٤٨ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ - «تَسْتَكْبِرُونَ» قال عنها ضمن مجموعة إنها (لا تسبب فرقاً من جهة المعنى ولا من جهة الأحكام الفقهية).
- ٢ - الأعراف ٥٧ ﴿بَشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ - «نُشْرًا» (لا تسبب فرقاً من جهة المعنى ولا من جهة الأحكام الفقهية).
- ٣ - التوبة ١١٤ ﴿وَعَدَّهَا بِإِيَّاهُ﴾ - «وَعَدَّهَا أَبَاهُ» (لا تسبب فرقاً من جهة المعنى ولا من جهة الأحكام الفقهية).
- ٤ - النساء ٩٤ ﴿إِذَا ضَرَيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ - «فَتَثَبَّتُوا» (لا تسبب فرقاً من جهة المعنى ولا من جهة الأحكام الفقهية).
- ٥ - البقرة ٥٤ ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ - «فَأَقِيلُوا» (للتخلص من المعنى القاسى الذى تعطيه القراءة الأولى).
- ٦ - الفتح ٩ ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ - «وَتُعَزِّزُوهُ» (يلحق بالتنزيهية لأن عزز بالراء تعنى المساعدة المادية).
- ٧ - الحجر ٨ ﴿مَانُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ - «تَنْزِلُ» / «تَنْزَلُ» (كذا ضبط).
- ٨ - الرعد ٤٣ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ - «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ» / «عِلْمُ» (قراءة بتغيير الحركات لتغيير المعنى).
- ٩ - المائدة ٦ ﴿وَأَرْجِلَكُمْ﴾ - «وَأَرْجِلِكُمْ» حكم فقهى .
- ١٠ - آل عمران ٥٠ ﴿وَجَنَّتْكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ - «فاتقوا الله» + من أجل ماجئتمكم به + ... «(استيفاء علاقة منطقية أو دينية)» ص ٢٣ .
- ١١ - الأحزاب ٦ ﴿وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتِهِمْ﴾ + وهو أب لهم .
- ١٢ - البقرة ٢١٣ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ .. + فاختلّفوا .

(١) هذه الأمثلة ذكرها جولد تسيهر فى كتابه ترجمة د. النجار ص ٩-٥٢ بترتيب ذكرها

- ١٣- المجادلة ٧ «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم» .. إلا الله رابعهم + ولا أربعة إلا الله خامسهم + .. (دفع شبهة دينية).
- ١٤- هود ٧١ «وامراته قائمة» .. + وهو قاعد .
- ١٥- النساء ٢٤ «فما استمتعتم به منهن فآتوهن» فما استمتعتم به منهن + إلى أجل مسمى (لنصرة مذهب إجازة المتعة).
- ١٦- البقرة ١٩٨ «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» .. + فى مواسم الحج (لإزالة الشك فى حل التجارة أثناء الحج) .
- ١٧- البقرة ٢٣٨ «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» .. + صلاة العصر (لتعيين المراد بها حسب رأى القارئ).
- ١٨- المائدة ٨٩ «فصيام ثلاثة أيام» ... + متتابعات (لنصرة القول بوجوب التتابع) .
- ١٩- البقرة ٤٨ «لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً» .. نَسَمَةٌ عَنْ نَسَمَةٍ .. (مرادف).
- ٢٠- المائدة ٣٨ «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» .. فاقطعوا أيماهما - (كالمرادف لتعيين المقصود) .
- ٢١- الرحمن ٩ «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» ... «باللسان» بدل بالقسط، والمقصود لسان الميزان. (ليان «كيفية» تمام الوزن) .
- ٢٢- مريم ٩٦ «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً» صَمْتاً بدل صوماً. (مرادف)
- ٢٣- الإسراء ٩٣ «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ» .. من ذهب. (مرادف)
- ٢٤- الكهف ٨٠ «فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا» - فخاف ربك (لم يؤخذ فيها بالتنزيه) .
- ٢٥- الصافات ٤٦ «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» صَفَاءً .. (بدل بيضاء).
- ٢٦- الصافات ١٢٣ «وَإِنْ إِلْيَاسَ لَمَنِ الْمُرْسَلِينَ» - وَإِنْ إِذْرِيسَ / إِذْرَاسَ. (مسخ) .
- ١٣٠ «سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ» .. على إدريسين .
- ٢٧- الروم ٢ «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ» - «غَلَبَتْ» .
- وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبُونَ - «سَيُعْلَبُونَ» (تناقض) .

- ٢٨- آل عمران ١٨ ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ - شُهِدَاءُ اللَّهِ (للتنزيه) .
- ٢٩- الصافات ١٢ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ - بَلْ عَجِبْتُ (للتنزيه) . وزعم أن هذه هي الأصلية .
- ٣٠- العنكبوت ٢ ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ - فَلْيُعْلِمَنَّ (للتنزيه) .
- ٣١- المائدة ١١٢ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ - هل تستطيع ربُّكَ (للتنزيه) .
- ٣٢- الأنبياء ١١٢ ﴿قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ - .. رَبِّي أَحْكُم بِالْحَقِّ (للتنزيه) .
- ٣٣- البقرة ١٠٦ ﴿مَانَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ - تَنْسَاهَا / نَنْسَاهَا
نَسَاهَا (كذا) - (للتنزيه)
- ٣٤- المائدة ١٠٦ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ - شَهَادَةُ اللَّهِ إِنَّا ... (للتنزيه) .
- ٣٥- البقرة ١٣٧ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ - فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ (للتنزيه) .
- ٣٦- آل عمران ١٦١ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ ... أَنْ يُغْلَّ (للتنزيه) .
- ٣٧- يوسف ١١٠ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ - كُذِّبُوا (قال: الأصلية: كَذَّبُوا / للتنزيه)
- ٣٨- يوسف ١٢ ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ - (للتنزيه) . وزعم أن «نَلْعَبُ» هي الأصلية .
- ٣٩- يوسف ٨١ ﴿إِنْ ابْنُكَ سَرَّحَ﴾ - سَرَّقَ (للتنزيه) .
- ٤٠- التوبة ١١٩ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ - «مِنَ الصَّادِقِينَ» .
- ٤١- النساء ١٦٢ ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ .. وَالْمَقِيمِينَ﴾ (زعم خطأ الكاتب) .
- ٤٢- النور ٢٧ ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ - حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا (زعم خطأ من الكاتب) .
- ٤٣- آل عمران ١٠٤ ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ..﴾ + وَيَسْتَعِينُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ (إضافة متحررة)
- ٤٤- يونس ٢٢ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يَنْشُرُكُمْ (مرادف) .

٤٥- الفاتحة ٦ ﴿هَدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أَرْشَدْنَا (مرادف) .

٤٦- التوبة ١٢٩ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ - مِنْ أَنْفُسِكُمْ .

٤٧- الواقعة ٢٦ ﴿وَوَطَّلِعَ مِنْضُودٌ﴾ - وَطَّلَعَ ...

ويمكن تقسيم هذه الأمثلة - تبعاً لتعليقات جولد تسيهر - إلى مجموعات حسب ما زعم من سبب وراء اختيار القراءة المخالفة في كل مجموعة .

فالمجموعة الأولى^(١) (من رقم ١ إلى رقم ٤) كلامه عنها (يعنى أنها مجرد اختيار من احتمالات الإعجام «لاتسبب فرقاً من جهة المعنى العام ولامن جهة الاستعمال الفقهي» .

□ والمجموعة الثانية^(٢) (من رقم ٥ إلى رقم ٩ لم يذكر لها سبباً موحداً . فالحامس قرئ «فَأَقْبِلُوا أَنْفُسَكُمْ» تخلصاً من قسوة المعنى في قراءة «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» ، والسادس قرئ «وَتُعَزِّرُوهُ بِزَايِنٍ لِأَنَّ قِرَاءَةَ «وَتُعَزِّرُوهُ» بالراء تعنى (فى زعمه) مساعدة البشر لله تعالى مساعدة مادية - وهذا لايناسب . وكان على جولد تسيهر أن يلحق هذا المثال بالأمثلة التى زعم أن المقصود باختيار القراءة المخالفة فيها هو تنزيه الله عز وجل عما لا يليق . والمثال السابع الذى اخترع فيه قراءتين تَنَزَّلُ - بفتح فسكون فكسر ، وتُنَزَّلُ - بضم فسكون ففتح وزعم أن هذه القراءات ممثلة فى الأقاليم المختلفة = لم يذكر له سبباً ، وكان عليه أن يلحق هذا المثال بأمثلة المجموعة الأولى . والمثال الثامن «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمٌ / عُلِمَ» لم يذكر لاختيار قراءته سبباً - مع وصفه إياها بأنها تحدث تغييراً فى المعنى بعيد المدى . والمثال التاسع قراءة

(١) هى الأمثلة التى فى ص ٩ وبعض ١٠ من كتاب جولد تسيهر .

(٢) هى الأمثلة التى فى بقية ص ١٠ وإلى نهاية ص ١٥ .

«وامسحوا برءوسكم وأرجلكم..» بكسر اللام - زعم أنها حجة الشيعة فى قولهم بمسح الرجلين فى الرضوء - لاغسلهما . وكان عليه - تنظيمًا لمزاعمه - أن يضمها إلى الأمثلة التى ادعى أن وراءها نصرة مذهب فقهى .

□ المجموعة الثالثة تضم الأمثلة من العاشر حتى الثامن عشر (١) . وفيها إضافات زائدة على كلمات القرآن قال جولد تسيهر عنها أولاً إنها «زيادات تفسيرية، حيث يستعان أحياناً على إزالة غموض فى النص بإضافة تمييز أدق يحدد المعنى المبهم، ودفعاً لاضطراب التأويل» (٢) .

وبعد أن وَطَّأً للأمثلة بذكر مناقب ابن مسعود وأبى بن كعب، وخاض فى ما روى عن ابن مسعود فى عدم التزامه بقراءة زَيْدٍ ومغاضبته عَثْمَان - رضى الله عنهم جميعاً - ذكر ذلك للمتاجرة به، ثم عاد ليقول «وليس بواضح حقاً ما قصد من هذه الزيادات. هل قصّد أصحابها إلى تصحيح حقيقى للنص، أو إلى إضافة تعليقات موضحة فقط لاتغير النص فى شىء، (ثم) نظر إليها جيلٌ متأخر بالنظرة الأولى» (٣) .

□ المجموعة الرابعة تضم الأمثلة من التاسع عشر إلى المثال المزدوج السادس والعشرين . وفيها ما قال إنه قراءة بلفظ مرادف للفظ القرآنى قد يكون أوضح أو أكثر تحديداً - لكن جولد تسيهر وصف ما جاء به من قراءة فى المثال الخامس والعشرين والسادس والعشرين بأنه «مسخ» للقراءة المشهورة .

(١) هى التى ص ٢١ - ٢٤ و ٢٦ .

(٢) ص ١٦ .

(٣) ص ٢١ .

□ وفي المثال السابع والعشرين « غُلِبَتِ الرُّومُ » قال إن القراءة المشهورة استُبعدت ووُضع مكانها ما هو نقيضها .

□ والمجموعة الخامسة تضم الأمثلة من الثامن والعشرين حتى التاسع والثلاثين قال إن الذى دعا إلى القراءة المخالفة فيها هو تنزيه الله تعالى وتنزيه رسوله عما يمس مافى نفوس المسلمين من قداسة لله تعالى ولرسوله ﷺ .

□ المجموعة السادسة من المثال الأربعين إلى السابع والأربعين^(١) هى مجموعة متنوعة من حيث مازعمه جولد تسيهر من سر القراءة بها : من محاولة تدقيق المعنى فى « وكونوا (من) الصادقين » ، إلى تبنى ادعاء الخطأ فى قراءة « لكن الراسخون... والمقيمين » ، إلى القراءة بالمرادف فى « حتى تستأذنوا » و« هو الذى يَنْشُرُكُمْ » و« أَرْشِدُنَا الصراط المستقيم » ، إلى زيادة عبارة على النص القرآنى (المثال الثالث والأربعين) ، إلى قراءة من أَنْفَسِكُمْ بفتح الفاء . إلى قراءة كلمة بإبدال أحد حروفها « وطلَّحٍ منضود » وطلَّعٍ منضود .

هذه هى الأمثلة التى بنى عليها جولد تسيهر مزاعمه . ثم إنه فى أثناء عرض تلك الأمثلة ومزاعمه بشأن كل منها تعرَّض لعدة أمور أكثرها من نفس باب الطعن فى القراءات هذا .

أ - فقد عرض للاختلاف بين القراءات بشأن حرف المضارعة بين غَيْبَةٍ وتذكير أو تاء مخاطبة أو تأنيث .

ب - وزعم فى قراءة « فاقتُلوا أنفسكم » أنها مأخوذة من سِفَر الخروج .

ج - وتكلم عما سماه الحرية فى قراءة القرآن الكريم يقصد حرية إبدال كلمة أو عبارة بأخرى ، ولما سمى القراءة بالمعنى .

د - وعرض لحديث الأحرف السبعة .

وسنرد عليها - بإذن الله تعالى وعونه وتمكينه - فى كل مزاعمه .
وسيتناول الرد الموضوعات الآتية :

أولاً: ردود مجملة عما زعم جولد تسيهر من أسباب القراءات .

ثانياً: نشأة القراءات وأنواعها . ويتضمن ذلك الكلام عن حديث الأحرف السبعة .

ثالثاً: الكلام عن وحدة النص القرآنى .

رابعاً: مناقشة الأمثلة التى اعتمد عليها جولد تسيهر فى ادعاءاته .

القسم الثاني

(تفنيـد الادعاءات)

الفصل الأول

مخالفات جولد تسيهر المنهجية

١ - معالم المنهج البحث والمناقشة العلميين

المنهج - بالفتح، والمنهاج - بالكسر: الطريق الواضح / المستقيم.
وكلمتا نهج - بالفتح، ومنهج بالفتح أيضاً تستعملان صفتين للطريق
فتعنيان الوضوح والاستقامة. فيقال طريق نهج، وطريق منهج، كما
تستعملان اسمين فيقال اتخذ نهجاً سديداً، وهذا منهج سديد. وسنقتصر هنا
على استعمال لفظ منهج .

وستعمل لفظ المنهج في اصطلاح الدراسة العلمية بمعنى الخطة
المرسومة أى التى تتبع فى دراسة مادة علمية مثلاً .

ونظراً لكثرة مناحى البحث العلمى، وقبول كل منها أن تكون لها
« خطة مرسومة » تتبع فيها، فإن لفظ المنهج يمكن أن يخص بأية ناحية
منها. فيكون هناك منهج لجمع المادة العلمية للموضوع، (استقراء وجمع
- كجمع الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع المدروس، أو جمع معلومات
عنه من مظانها، أو جمع ملاحظات، أو استبيانات... أو بجمع المعلومات
من كتب ثم دراسة ما جمع، أو بإجراء تجارب ... إلخ .

□ كما يكون هناك منهج للمعالجة (دراسة واستنباط معلومات،
أو تحليلات ومناقشات، أو إجراء تجارب أخرى إذا كان الموضوع يقبل
ذلك - ثم استخراج النتائج .

□ ويكون هناك كذلك منهج للعرض: عرض الموضوع أو المشكلة،
وعرض المعالجة، وعرض النتائج .

والخلاصة أن المقصود بالمنهج هو الطريقة التى تتبع فى معالجة أمر

ما .

□ والمنهج أو الطريقة التي تتبع هنا - أعنى فى موضوع من الموضوعات الأدبية^(١) كالذى نحن بصدد - ينبغي أن تكون علمية فى كل مراحلها. فى المادة وجمعها، وفى أسلوب دراستها وتحليلها، وفى منطوق الاستخلاص واستقامته. فكلمة **علمي** أو **علمية** فى وصفنا للمنهج مقصود بها ما هو حقائق مستيقنة، وأساليب صحيحة يعترف بها أهل البحث، وتوصل إلى حقائق علمية مستيقنة يسلم بها أهل البحث العلمى .

□ وبما أننا هنا لسنا فى مجال « بحث علمي حر » وإنما فى مجال « مناقشة علمية » الادعاءات سيق على أنها حقائق علمية، فمن الضروري أن نأخذ متطلبات هذه المناقشة فى الاعتبار. وللمناقشة مناهج أيضاً بحسب أغراضها. فمنها الجدلى الذى هدفه الغلب فحسب فيستعين بالأباطيل والمخادعة والخطابة، ومنها ما هدفه الوصول إلى الحق فيلتزم بالمعلومات الصحيحة والأساليب المستقيمة. وسنأخذ من متطلبات المناقشة ما لا ينزع أحد فى ضرورة الالتزام به إذا أريد بالمناقشة أن تصل إلى مقررات علمية فى موضوعها بكل نقاطه. ومن هذه المتطلبات : -

١ - ضرورة صحة المعلومات الأولية التى يبنى عليها البحث، وتستنبط منها الأحكام والمقررات .

٢ - التزام الباحث بضوابط البحث العلمى. ومنها ما يلى :

أ - تجرده من الفكر المسبقة حتى لا يلوى الكلام من أجل إثبات تلك الفكر .

ب - استيفاء الإلمام بجوانب الموضوع .

(١) المقصود بالأدبية ما كان موضوع الدراسة فيه. كلاماً لغوياً أى ليس أموراً مادية كما فى دراسة الطبيعة (معدنيات وأحجار وتربة)، والكيمياء (مواد حسية تتفاعل). فدراسة اللغة والتفسير والحديث والفقه والتاريخ.. كلها دراسة أدبية بهذا الاعتبار .

ج - لا يقيس الباحث شيئاً على شيء آخر إذا كان هناك فرق بينهما .

د - لا يناقش الطرف الآخر في ما لا يعترف ذلك الطرف بنسبته إليه .

هـ - لا يناقض نفسه .

و - يتجنب المرسلات الجزافية، والتعميمات .

ز - لا يُقحم ما لا دخل له في موضوع الدراسة، ولا يستطرد إليه .

ح - يلتزم الأمانة في البحث والمناقشة ولا يؤهم لا يغالط .

والتزام آداب البحث والمناقشة العلميين التي ذكرنا بعضها في

ما سبق ضرورة لا بد منها :

أولاً: لأنه هو الذي يوصل إلى نتائج علمية يُعترف بها ويوثق، ثم تصير تلك النتائج مقررات ثوابت في ما حُكمت بشأنه، إذ رُوعى في كل خطوات الوصول إليها ما يقره أهل العلم، وبذلك تتقدم البحوث العلمية وتنمو .

وثانياً: لأن المنهج العلمي يعصم من الانحراف مع الأهواء التي تحرف المنحرفين عن العلمية إلى الكذب والخداع والتضليل وقلب الحقائق وقد تؤدي إلى مهاترات تزيد الخلاف، وتبعد عن الجادة، ولا حصيلة لها .

فالمنهج غير العلمي، والمعالجات غير العلمية لا تؤدي إلى نتائج معترف بها من الجميع، فما يقبله هذا يرفضه ذاك، وما يقبل اليوم يرفض غداً، ويتجدد البحث فيه، وبذا تتوقف مسيرة العلم، ويتحول الأمر إلى اجترار المسائل أى إعادة بحثها جيلاً بعد جيل .

وحسبنا هذا في الكلام عن مناهج البحث العلمي والمناقشة العلمية وآدابهما . فما أردنا إلا التوطئة لمناقشة جولد تسيهر، وكشف مدى علميته في ادعاءاته بشأن قراءات القرآن الكريم .

والآن فإننا سنحتكم في مقال جولد تسيهر إلى تلك الضوابط العلمية التي لا نزاع في ضرورتها للبحث والمناقشة العلميين .

٢- مدى التزامه بصحة المعلومة :

ذكرنا أن من مسلمات البحث العلمى أن تكون المعلومات التى تبني عليها الأحكام معلومات صحيحة. ولكن الذى تثبته لنا دراسة كلام جولد تسيهر عن القراءات أنه لم يكن أبداً حريصاً على أن تكون المعلومات التى يبنى عليها دراسته صحيحة. فموضوع القراءات يتعلق بكتاب سماوى كريم أنزل على نبي كريم فى القرن السابع الميلادى أى منذ أكثر من اثنى عشر قرناً ميلادياً قبل حياة جولد تسيهر: والنص الكريم موجود، وقراءاته موجودة. أما كيفية نشأة هذه القراءات فالسبيل العلمى الأول إلى معرفتها هو جمع ما قاله الذين عاصروا هذه النشأة عنها، لأنهم رأوا، وسمعوا، وربما شاركوا أيضاً فى هذه النشأة. وكلامهم أحق بالاعتبار من كل كلام آخر على الإطلاق، لأنهم شاهدوا ووصفوا مشاهدة ووصفاً خاصين بعين الموضوع المبحوث فيه «ومارء كمن سَمِع». ثم لابد مع الجمع من التوثق من صحة الأسناد التى حملت تلك الأقوال إلينا - أى أمانتها فى النقل. وبعد الاطمئنان على صحة نسبة أقوال معاصرى النشأة إليهم فإننا نأخذ منها الأحكام التى تصدرها. فإذا أحسنا استخلاص الأحكام والمقررات من تلك الأقوال اطمأنا إلى أن مقرراتنا تسد ثغرة التساؤلات عن هذه النشأة، لننتقل إلى مسألة علمية أخرى. أما إذا لم نجد فى مثل هذا الأمر الذى نحن بصده - روايات خاصة بعين مابحث. فإننا نلجأ إلى الروايات العامة التى تتناول الظروف المحيطة بما نبحت فيه، ونفحصها ونستنبط منها ما يكون ما يستنبط منها فى قوة الروايات المنصبة على عين الموضوع أبداً، وهنا أيضاً لابد من التوثق من صحة أسناد تلك الروايات العامة. فإذا لم تتح لنا روايات عامة ولا خاصة، لجأنا إلى الآثار والنقوش المتعلقة بعين مابحث فيه. فإن لم يتح هذا أيضاً لجأنا إلى فحص

النص نفسه الذى نبحث أمراً يتعلق به (كيفية النشأة فى حالتنا هذه) فحسباً ينصب على الحيثية المطلوبة .

والآن ماذا كان موقف جولد تسيهر من ضرورة استيفاء صحة المعلومات التى يتكئ عليها للكلام عن نشأة القراءات؟
لقد تبين من دراسة كلام جولد تسيهر أنه لم يحفل بمستوى إسناد الروايات التى تتحدث عن جوانب من موضوع نشأة القراءات. وتأكيداً لهذا الموقف، وبدلاً من أن يميز الإسناد الضعيف لخبر ما ويكشف أمره، أخذ يغمز الإسناد بتعميم لا يصدر عن أهل العلم .

الغمزات :

- غمز جولد تسيهر فى الإسناد غمزات كثيرة موهماً أن أمره سهل بحيث يستطيع من شاء أن يخترع إسناداً لما يقول. فمن ذلك :-
- ماجاء (ص ٢٤-٢٥) فى أثناء كلامه عن قراءة «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» (البقرة ٢٣٨) وأن بعضهم كان يفسر الصلاة الوسطى بصلاة العصر حيث قال «أقحم من يقول به (أى بهذا التفسير) توضيحهم فى نص القرآن فرووا عن مولاة (السيدة) عائشة ذكروا - زيادة فى توثيق الرواية - أن اسمها حميدة بنت أبى يونس» .
- و(ص ٢٥) فى نفس الموضوع «ولاستقصاء جميع الاحتمالات كان لابد من اتخاذ البراء بن عازب صحابى الرسول سنداً لرواية مؤداها أن النص كان يُقرأ عدة سنين على عهد رسول الله ﷺ «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» .
- وفى (ص ٣٠) بشأن القراءة المعروفة فى «غلبت الروم» . يقول «وفى هذا ، (يعنى فى قراءة «وهم من بعد غلبهم سيغلبون» يرى المسلمون

دليلاً على نبوة محمد ﷺ، لأنه تنبأ بانتصار هرقل على الفرس (سنة ٦٢٥م) وأخبر به على وجه التأكيد « ثم علق جولد تسيهر في الهامش بقوله بناء على بعض الأخبار المتصلة بهذا راهن أبو بكر مشركى مكة على تحقق هذا التنبؤ، فكسب الرهان بطبيعة الحال، وأنفقه فى الصدقة » وقصة مراهنه أبى بكر المشركين ثابتة (١).

- وفى ص ٤٧ نَسَبَ - إلى عهد التفسير القديم، « أنهم كانوا يظنون إمكان جعل الحكم الاختيارى على قالب النص فى الكتاب المقدس شرعياً معتمداً بوساطة أسانيد قديمة لا غبار عليها وإن كانت مخترعة »

- و (فى ص ٥٦) يقول « فإن الاستناد على حجج موثوق بها ليس أمراً عسيراً مادام ذلك راجعاً إلى مجرد اعتماد شفوئى » ويقصد بالاعتماد الشفوئى الروايات .

إننا لاندعى أن كل الروايات صحيحة ضرورة، ولاندعو إلى عدم فحصها، فإن ذلك الفحص ضرورى، وله ضوابطه بل له علم كامل تحدثنا عنه فى موضع آخر .

موقف عام من الإسناد :

هذه الغمزات من جولد تسيهر تشير إلى موقف عام للإسناد اتخذته هؤلاء المستشرقون وهو عدم النظر إليه، وقد عبر أحدهم عن هذا صراحة وهو آثر جفرى الذى ذكر منهج المستشرقين مسمى إياه منه أهل التنقيب مقابل منهج أهل النقل فقال. « فأما أهل النقل فاعتمدوا على آراء القدماء، وعلى هذه التخيلات التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم والتى نقلوها من دور إلى

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (مكتبة التراث) ٤٢٤/٣ .

دور، وإذا ما وجدوا بين هذه الآراء خلافاً اختاروا واحداً منها وقالوا إنه ثقة وغيره ضعيف أو كاذب، وأما أهل التنقيب (الذين سماهم أهل العقل) فطريقتهم في البحث أن يجمعوا الآراء، والظنون، والأوهام، والتصورات، بأجمعها، ليستنتجوا بالفحص والاكتشاف ما كان منها مطابقاً للمكان والزمان وظروف الأحوال، معتبرين المتن دون الإسناد، يجتهدون في إقامة نص التوراة والإنجيل، كما أقيم نص قصائد هوميروس، أو نص رسائل أرسطو الفيلسوف»^(١).

- إن هذا الذي عزاه آثر جفرى إلى أهل النقل وأنهم اعتمدوا على آراء القدماء، والتخيلات التي ورثوها، وأنهم إذا وجدوا بين آراء القدماء خلافاً اختاروا واحداً منها وقالوا إنه ثقة وغيره ضعيف.. هذا كلام من لا يعلم شيئاً عن حقيقة الإسناد علم الرجال أو الجرح والتعديل في الإسلام. إن الإسناد من خصائص هذه الأمة العربية: دعا إليه من قبل الإسلام فُشِّوْا الأُمِّيَّة فيهم، فاستعانوا بما وهبهم الله من أذهان حافظة فكان للشعراء رواة يحفظون شعرهم وينقلونه إلى الأجيال التالية وجاء الإسلام فاحتاجوا إلى هذه الأذهان في رواية الحديث الشريف (حيث كان الرسول ﷺ قد نهاهم أول الأمر عن كتابته حتى لا يختلط بما كُتِبَ من القرآن الكريم).

وقد بدأ الاهتمام بسند الروايات وحال رواتها منذ العَقْد الثاني من القرن الأول الهجري^(٢)، ثم تزايد حتى وجدنا مؤلفات واسعة فيه في النصف الأول من القرن الثالث. كتاريخ الرواة ليحيى بن معين (١٥٨ - ٢٣٣هـ) وله أيضاً «معرفة الرجال» و«التاريخ والعلل» وكذا كتاب «التاريخ» لخليفة بن خياط الشيباني (٢٤٠هـ)، و«التاريخ» للإمام أحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١هـ) والتاريخ الكبير للإمام محمد بن

(١) ينظر كتاب «المصاحف» لابن أبي داود. المقدمة لأثر جفرى ص ٤.

(٢) في مثل كتب «السبعة» لابن مجاهد، و«التيسير» و«الجامع» لأبي عمرو الداني...

ثم «معرفة القراء الكبار» للذهبي... ثم «غاية النهاية» لابن الجزري.

إسماعيل البخارى المتوفى ٢٥٦هـ... ومن أواخر المدونات الكبرى من هذا النوع من التأريخ الجامع للرواة « تهذيب التهذيب للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) ». (١)

وفى كل من تلك المؤلفات فى متلقى القرآن والقراءات وأسنادهم، وفى رواية الحديث والآثار - تُذكر معالم كاملة عن حياة كل منهم (مولده ومنشئه وشيوخه وتلاميذه) ثم عن حاله من حيث مدى الثقة فى تلقيه وضبطه للرواية - مع كل التفاصيل التى تتصل بذلك وتؤثر فيه بالنسبة لرواة الحديث والآثار خاصة (لأن نص القرآن الكريم مدون معين الكلمات برسمها وقراءاتها منذ عهد النبى ﷺ لايزاد فيه ولا ينقص منه) فيذكر عن راوى الحديث حالته العقلية من حيث الفطنة والغفلة، وحالة حفظه وإن كان ينسى أو لا ينسى، ومصدره عندما يروى لغيره (من ذهنه أم من كتابه)، وحالته الصحية (إن كان حفظه تأثر بكبر سنه أو بمرضه)، ودقته فى الرواية (يروى بنص ما روى له هو أو بمعناه)، ومدى تجاوزه أو عدم تجاوزه فى التعبير عن كيفية تلقيه ما يروى (سمعتُ أو حَدَّثَنِي / أم عن فلان إلخ) إلى تفاصيل كثيرة كلها تبين مدى ضبط الرواية ودقتها. (٢)

لقد بلغ عدد التراجم لأفراد أسناد القرآن والقراءات فى غاية النهاية لابن الجزرى ٣٩٥٥ أى نحو أربعة آلاف ليس فيها مكرر. فى حين بلغت تراجم رواية الحديث والآثار فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ١٢٤٥٥ (٣) بعضها مكرر، يقدر أن تكون بعد حذف المكرر نحو أحد عشر ألفاً. وهذا فى كتاب واحد لكل منهما وهو إن كان جامعاً، فإنه لا بد أن هناك ما يضاف من كتب أخرى .

(١) ينظر كتاب « السنة قبل التدوين » د. محمد عجاج الخطيب (دار الفكر لبنان) ط ٣

ص ١١٢ - ١١٦ ثم ٢٢٠ - ٢٤٨ .

(٢) السابق ص ٢٦٥ - ٢٧٣ وقد ذكر أكثر من عشرين كتاباً .

(٣) جمعت أرقام آخر ترجمة فى كل جزء .

ويضاف إلى تأريخ الرواة وفحص أحوالهم - حسب ما أشرنا إليه سابقاً - فحص متن الحديث أو الأثر نفسه أى فحص نصه للتحقق من صحته. ولهذا النوع من الفحص بنودُه وضوابطه^(١) أيضاً. ويترتب على الفحصين الحكم على درجة الحديث أو الأثر .

هذا التمحيص والفحص والتثبت هو منهج علماء الإسلام فى التحقق من صحة الخبر أو المعلومة التى يدرسونها ليستنتجوا منها الأحكام والمقررات، وهو منهج يأتى بحقائق أصلب من الصخر وأرسخ من الجبل لاتوهنها أو تزلزلها تلفيقات المستشرقين وظنونهم المصطنعة من أوهام موهوها بما سموه التحقيق العقلى، وهى تكشف تماماً زيف أولئك المتطفلين المتعالمين الذين يتبجحون بأن منهجهم أن يستنتجوا مقرراتهم من فحص الأوهام والظنون، بل إنهم يتعالمون علينا بهذا الخطب الذى يعدونه منهجاً، وإنما هو جهل مركب .

وهذه شهادة أحد الناجين مما هم فيه من عمى بصيرة وهو المستشرق الألمانى شبرنجر يقول فى تصدير كتاب الإصابة لابن حجر (طبعة كلكتا ١٨٥٣ - ١٨٦٤م) «ولم تكن فى ماضى أمة من الأمم السابقة، كما أنه لاتوجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطر الذى يتناول أحوال خمس مئة ألف رجل وشئونهم»^(٢) وأيباس الرقم الذى ذكره هو جمع تراجم طبقات أهل كل علم من العلوم الإسلامية (اللغة، والنحو، والفقه بمذاهبه، والتفسير بأنواعه، والحديث، والتاريخ. .) .

إن إعراض المستشرقين عن الإسناد ووثاقته جعلهم يجهلون قيمته . فإنه أهم ميزان موضوعى لتمحيص المعلومات التاريخية القديمة. ونقول موضوعى لأنه يأخذ ممن رأى الأحداث وسمعها وعاشها - فهو أقرب

(١) انظر مثلاً - «السنة قبل التدوين» ٢٤١ - ٢٤٨ .

(٢) السنة قبل التدوين ٢٣٨، وهو عن «أضواء على التاريخ الإسلامى» لفتحى عثمان

ما يمكن إلى مباشرة الموضوع المدروس فى هذا المجال الأدبى ، ولأن بأيدينا ميزاناً علمياً لنقد رجال سنده ابتداء من الذين رأوا وسمعوا إلى حلقة الذين أبلغونا . وهذا الميزان هو جهد مخلص لعلماء مخلصين درسوا حياة الرواة ، وقومهم حسب ما فصلنا من قبل .

بدائل الإسناد عند جولد تسيهر :

حين أعرض جولد تسيهر عن الإسناد - تبعاً لما جرى عليه فريق من المستشرقين - لجأ إلى أساليب غير علمية لاستقواء المعلومات عن هذا الموضوع التاريخى (أ) الإسقاط . (ب) القمش . (ج) الجزافية .
(أ) منهج الإسقاط (قياس تاريخ القرآن على مافى ذهنه من تاريخ ك م المقدسة) .

لما أعرض جولد تسيهر والمستشرقون عن الإسناد لجئوا إلى البديل وهو الاحتكام إلى مافى نفوسهم وأذهانهم (ماسموه منهج أهل العقل) فى حين أنها لاتصلح حكماً ، لفقد شرط التجرد ، لأنها مشحونة بالأحكام المسبقة عن محمد ﷺ وعن القرآن وعن الإسلام وعن المسلمين ، فلا بد أن تميل بهم عن الجادة العلمية تلك الأحكام المسبقة . وشاهد هذا أن جفرى بدأ مقدمته لكتاب المصاحف بالكلام عن تطور كتابهم المقدس ، وأنهم أجروا دراسات عليه حددت أطواره . وهو يظالبنا قياساً على ذلك أن ندرس تطور كتابنا . وتناسى الفروق الهائلة التى أولها أن الإنجيل ليس له أصل موجود بلغة سيدنا عيسى ، وأن الأناجيل التى يعترفون بها ماهى إلا سيرة لعيسى عليه السلام من تأليف تلاميذه . كذلك جولد تسيهر (أ) يبدأ كتابه هذا بتشبيه القرآن بالإنجيل . مع معرفته بما تميزت به مسيرة القرآن دون غيره من الكتب السماوية (التلقى من النبى ﷺ مع العرض ، والاستظهار ، والتدوين الخطى ، ونقل النص بطبقات جيلاً بعد جيل) . وما اعترف به من هذه الفروق من أن التغييرات التى أحدثت فى العهد

القديم (التوراة) اعتُمِدَت، ولم تُعْتَمَد تَغْيِيرَاتُ فِى الْقُرْآنِ. (١) (ب) ويتكلم عن الاختلافات العقدية عند المسلمين (٢) تأثراً بما عند اليهود والنصارى من اختلافات عقدية فى ذات المعبود (عز وجل)، وقياساً عليهم. (فالنصارى قالوا ثلاثة واختلقوا وهم واليهود جعلوا له عز وجل ولداً) فى حين أن المسلمين عقيدتهم فى الله عز وجل هى التوحيد المطلق بلا أى خلاف فى هذا. (ج) ويتكلم عن تَغْيِيرَاتِ فِى الْقُرْآنِ بِاسْمِ الْقِرَاءَاتِ قِيَاساً عَلَى مَا فَعَلُوهُ هُمْ فِى التَّوْرَةِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَغْيِيرٍ. وهذه هى ثمرة ترك الميزان الموضوعى للدراسة واللجوء إلى ماسموه العقل، وما هو إلا فِكْرُهُمِ الْمُخْتَزَنَةُ مِنْ عَقَائِدِهِمْ وَثِقَاتِهِمْ يَسْقُطُونَهَا عَلَى مَا يَدْرُسُونَ.

(ب) قَمَشُ الْمَعْلُومَاتِ مِنْ كُتُبِ هَزْلِيَّةٍ .

لجأ جولد تسيهر إلى قمش المعلومات من كتب هزلية لعللاقة لها بالعلم القرآنى أو غير القرآنى من قريب أو بعيد. ومن ذلك رجوعه إلى كتاب ألف ليلة وليلة وعدة مرات مرة (ص ١٨ تعليق (١)) بشأن حديث «خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم ، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب» الذى وثقه عن شرح القسطلانى للبخارى ١٠ / ٢٧٨ (كتاب الأحكام رقم ٢٥) ثم قال: جرى هذا الحديث على لسان الجارية المتأدبة فى قصص ألف ليلة وليلة (بولاق ١٢٧٩هـ - ج ٢ ص ٣٧١) جواباً على سؤال عن أوثق القراء... (٣) فهل وثاقة أى من الأربعة تحتاج إلى شهادة جارية ألف ليلة وليلة ؟

وأما الحديث نفسه فهو صحيح ورد مكرراً فى البخارى (٤) وكفى بصدوره عن النبى ﷺ شاهداً صريحاً على كون هؤلاء من أقرأ الأمة .

(١) ينظر مذاهب التفسير ٣٢ .

(٢) ينظر السابق ١٩، ٥ .

(٣) ينظر مذاهب التفسير ١٨ .

(٤) ينظر الحديث رقم ٣٧٥٨ فى «صحيح البخارى مع كشف المشكل» ٤٦/٣ حيث ذكر أرقام تكراره .

- ومرة (ص ٥٧ تعليق ٣) بشأن اعتقاد بعض العامة أن قراءة نافع هي قراءة أهل الجنة - وهي معلومة لم تُقَلْ إلا في ألف ليلة وليلة .
- وثالثة (ص ٦١) بشأن افتخار الجارية تودد بأنها تقرأ بالقراءات السبع والعشر، وكان وجود القراءات الأربع عشرة أو شيوخ أمرها يحتاج هذا الاحتجاج .
- وهذه مجرد أمثلة .

(ج) إرسال الأحكام الجزافية :

- لجأ جولد تسيهر كثيراً إلى إرسال الأحكام دون سند علمي يحتاج به .
وستذكر هنا بعضاً من تلك الأحكام الجزافية لكثرتها، ونتناول المرسلات الأخرى في مواضع مناسبة لها .
- ### فمن تلك المرسلات الجزافية :

- قوله (في ص ٤) « إنه لا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نصٌ منزل أو مَوْحَى به يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نص القرآن ». وهو يعني أن نص القرآن هو أكثر الكتب الدينية اضطراباً على الإطلاق . فنانظر إلى هذه الفجاجة في التعميم الذي لا يرتكبه باحث مبتدئ .

وقد رد الدكتور عبد الحليم النجار على هذا التعميم الفج بما خلاصته .

- أن جولد تسيهر لم يطلع على كتب الشرائع السابقة في نصوصها الأصلية فكيف يحكم بأنها لم تبلغ في الاضطراب مبلغ القرآن .
- اعترف جولد تسيهر بأن التلمود يقول بنزول التوراة (كتاب اليهود ومنهم جولد تسيهر) بلغات كثيرة في وقت واحد . وهذا يمثل مصدراً لاختلاف نصوص التوراة ولا شك .
- اعترف أن للتوراة أكثر من نسخة مختلفة حيث تساءل عن النسخة التي استخدمها «أبو الجلد» ثم إن علماء العرب أثبتوا أنه كانت هناك

ثلاث نسخ معروفة للتوراة. وكذلك الإنجيل له نسخ كثيرة جداً مختلفة اختلافات واسعة.

- اعترف المستشرق آثر جفرى مؤكداً أن تاريخ التوراة والإنجيل، وصحة نسبتها، وحرفيتهما = أبعد شيء عن الصحة والوثوق .
ومن تلك الجرافيات :

- قوله (ص ٦) عن نص القرآن الكريم «إن نصه المشهور يرجع إلى الكتابة التي تمت بعناية الخليفة الثالث عثمان». والحقيقة التي يعلمها كل دارس لتاريخ القرآن - حتى لو لم يكن متعمقاً - أن القرآن كله موجود وجوداً مادياً قبل كتابة المصاحف العثمانية. فقد كان المسلمون يرتلون نصوصه منذ أنزل على النبي ﷺ في مكة قبل كتابة المصاحف العثمانية بما يقرب من أربعين سنة. وأن نصه الكريم كان يُكتب بين يدي النبي ﷺ فور إنزاله أي أولاً بأول، وأن المواد التي كُتِبَ فيها بين يدي النبي ﷺ اتُّخِذَتْ مع التلقي الشفاهي من الرسول ﷺ سنيين لتسجيل القرآن مصحفاً في عهد أبي بكر رضي الله عنه سنة ١٢هـ، وأن مصحف أبي بكر هذا هو أصل تلك النسخ التي كُتِبَتْ في عهد عثمان رضي الله عنه. وكل حلقة من هذه الحلقات السابقة للمصاحف العثمانية موثقة تاريخياً بما لا يدع مجالاً للشك. ثم يأتي جولد تسيهر فيُلْقِي بِمُرْسَلَتِهِ الجرافية أن نص القرآن يرجع إلى الكتابة التي تمت في عهد عثمان. إنها جرافية مصحوبة بصلاة الوجه .

ومن تلك المرسلات الجرافية. كلامه عن «الحرية» في إنشاء القراءات.

ردد جولد تسيهر في كلامه عن تعدد القراءات أن هذا التعدد كان سببه حرية القراءة التي وصلت إلى حد «الحرية الفردية» - حسب قوله. وقد كرر الكلام عن هذه «الحرية» حوالي عشرين مرة (ص ٤٨-٦٤) على حسب عاداته في محاولة زرع الفكرة وتشبيتها بالتكرار - مما يسمى في زمننا هذا «غسيل المخ».

والحقيقة أنه لم تكن هناك « حرية » فى القراءة (بمعنى أن يقرأ كل كما يشاء) لم تكن هناك هذه الحرية على الإطلاق. فقد كانت القراءة من أول الأمر تلقياً مسنداً، ومشروطاً بمطابقة الرسم. وجاءت الاختلافات من قراءة الصحابة بلهجاتهم المختلفة فى أداء النص نفسه (بين إمالة ونصب، وهمز وعدمه، وضبط ضمير الجمع...، وبعض الإعراب إلخ) ثم قراءاتهم بما تلقوه مختلفاً فى بعض الكلمات مثل « تثبتوا » و« تبينوا » تبعاً لحديث الأحرف السبعة. قرأ الصحابة بذلك ثم جاء التابعون فتلقى كثير منهم عن أكثر من صحابى فكان يميز بين قراءات الصحابة الذين قرأ عليهم أو يختار منها. وهنا فى جيل التابعين هذا تجمعت القراءة بل تججرت على التلقى أى اقتصر القارئ من التابعين ومن بعدهم على القراءة بما تلقاه تماماً، أى بصرف النظر عن لهجة قبيلته وعما يمكن أن يكون درسه من الحروف، وانحصر اختلاف قراءته فى حدود ما تلقاه. بمعنى أنه إذا كان قد تلقى أكثر من قراءة فإنه كان يقرأ بهذه وتلك. وجاء بعد ذلك دور العلماء أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) فذكر أسماء قراء أمصار المسلمين الخمسة (وكلهم من قراء القرن الثانى الهجرى) ونوه بثلاثة قراء بأعيانهم فى كل مصر مع ذكر تلاميذ بعضهم. وكان هذا أول اختيار شامل لقراء وقراءات. وتلاه فى الاختيار من قراءات هؤلاء بأعيانهم: أبو حاتم السجستاني (٢٥٥هـ)، وابن جبير (٢٥٨هـ)، وابن قتيبة (٢٧٦هـ)، وإسماعيل بن إسحاق (٢٨٢هـ)، وابن جرير الطبرى (٣١٠هـ)، والداجونى (٣٢٤هـ)، وابن مجاهد (٣٢٤هـ) ^(١) فهؤلاء كان الواحد منهم يختار قراءة بعينها لكل قارئ من أولئك القراء الذين نوه بهم أبو عبيد وذكرناهم أكثر من مرة هنا. فهذا هو الأمر: اختيار مُقَنَّ، وقع أصله من علماء متقدمين، اختاروا من قراءات قراء بأعيانهم من القرن الثانى تلقوا عن قراء القرن الأول. فالعلماء الذين اختاروا وألقوا كتباً فى القراءات منذ أبى حاتم حتى الدماطى (ت ١١١٧هـ) انحصرت اختياراتهم فى قراءات أولئك الذين نوه

بهم أبو عبيد، ولم يختلفوا إلا فى طريقة العرض، وأن يختار بعضهم وجهاً لقارئ من أولئك لم يختره الآخر. ووقع هذا فى حدود جد ضيقة أيضاً. فلا أصل ولا حقيقة لما سماه جولد تسيهر «حرية» فى القراءة .

ومن تلك المرسلات الجرافية ادعاء جولد تسيهر أخذ القراءات عن الخط وهو يقصد أن خلو الخط العربى من النقط والشكل فى عصر كتابة المصحف سمح للقراء ولذوى الآراء والاتجاهات أن يختاروا إعجاباً وشكلاً يحول الرسم المصحفى إلى كلمات وعبارات (قراءات) حسب اجتهاداتهم أو حسب ما يدعم آراءهم واتجاهاتهم .

(٢) فنقول إن المفروض أن يقع ذلك الاختيار والاجتهاد ممن يأخذ القرآن قراءةً من مصحف مكتوب. ولكن الواقع التاريخى يقرر بيقين أنه لم تكن بين أيدي المسلمين مصاحف عامة يمكن أخذ القرآن منها إلا بعد كتابة المصاحف العثمانية وتوزيعها على الأمصار. والمصاحف العثمانية إنما بدأت فكرتها وتنفيذها بعد فراغ المسلمين من فتح أرمينية سنة ٢٥هـ حيث كان حذيفة بن اليمان يشارك فى الفتح ورأى اختلاف المسلمين فى القراءة حسب ما تلقى كل منهم، فقدم على أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وأطلعته على ما رأى من هذا الاختلاف، وحذره من مصير المسلمين إلى مثل حال اليهود والنصارى من حيث اختلافهم فى كتابهم. فاستشار عثمان الناس، وألف اللجنة التى كتبت مصاحف وزعت على الأمصار، فهنا فقط يمكن أن يُدعى أن أحداً أخذ قراءته عن خط المصحف. ومع أن هذا الادعاء مردود عليه بأن عثمان أرسل مع كل مصحف قارئاً يقود الناس فى قراءته، فإن الأهم أن يتبين باحث هذه المسألة أن أخذ القرآن بالاجتهاد فى قراءة خط المصحف، كان مستحيل الوقوع تماماً قبل وجود المصاحف العثمانية سنة ٢٥ - أو بعدها بقليل .

(١) ينظر وثيقة نقل النص القرآنى الكريم من رسول الله ص إلى أمته ص ١١٧-١١٩ .

ثم إنه على افتراض أن هذا النوع من القراءات قد وجد - أعنى النوع الذى أخذت فيه القراءة بالاجتهاد فى قراءة رسم المصحف، فإن هذا النوع إذا وقع لا يحسب علينا نحن أمة القرآن والإسلام، لأن الأمة لا تعتد قرآناً وقراءة إلا ما ثبت تلقيه عن النبي ﷺ بسند صحيح متصل إليه ﷺ شفاهياً، مع مطابقتها الرسم العثمانى، كما هو الشأن فى القراءات العشر التى اعتمدتها الأمة. أما ما أخذ عن رسم المصحف فحسب، فسند الرسم وحده، ويكون قد فقد أهم شروط القراءة المقبولة وهى الرواية الشفاهية الصحيحة. فالعبرة عند الأمة الإسلامية فى شأن القرآن والقراءات خاصة هى التلقى الشفاهى. وقيمة الرسم (أى الكتابة، والمقصود هنا هو الرسم العثمانى خاصة) إنما هى فى دعم القراءة المتلقاة - أى هو أحد شواهداها - لافى إنشاء قراءة للنص الكريم.

ب - فى أمر القرآن خاصة ليس هناك احتمال علمى لأخذه من مكتوب أخذاً ابتدائياً، أى أن واقع الأمر لم يكن يتأتى فيه هذا للنبي ﷺ وللصحابة، إذ كانت القراءة إسماعياً قبل الكتابة دائماً. فالنبي ﷺ كان يتلقى القرآن وحياً يسمعه بأذنه وقلبه، ولم يتلقه فى لوح مكتوب كما كان الحال مع سيدنا موسى مثلاً. وبعد التلقى كان النبي ﷺ يتلو ما تلقاه على كاتبه ليدون ما نزل فى رقاع أو عرائض من عظم أو حجارة أو جريد، وعلى حاضريه من الصحابة سواء حين الإملاء على الكاتب أو بعده. وكان هؤلاء الحاضرون المتلقون ينقلونه إلى غيرهم من الصحابة، أى أن الذين لم يحضروا نزول الوحي كانوا يتلقونه إسماعياً أيضاً لأخذاً من الرقاع التى كتبت فالرقاع كانت تحفظ فى بيت النبي ﷺ، فلم تكن هناك فرصة لأخذ

القرآن تهجياً من الرموز الخطية. وما جاء من روايات الحفظ أى الاستظهار من رقاع كما فى قصة صحيفة أخت عمر، وكما روى عن وجود مصاحف خاصة، فإنما كان دور الكتابة فيه هو مجرد تسجيل رموز كلمات النص الذى تُلقَى مشافهة - تسجيلها بكتابة فى رقاع أو عرائض (أى سطوح عريضة) ليتمكن استظهار النص بتكرار قراءة رموز كلماته وآياته حسب ما قُرئت من قبل: إما عن النبى ﷺ مباشرة وإما عن صحابى وسيط تلقى من النبى ﷺ ثم تلا على إخوانه المسلمين. واحتمال أن يكون صحابى كتب وأعطى ما كتبه لغيره دون أن يقرئه إياه - هذا الاحتمال يبعد بعداً شديداً لوجود الرسول ﷺ بينهم، ثم على فرض وقوع هذا الاحتمال فإنه لا يمكن أن يأتى بقراءة مخالفة فى عصر النبوة، لوجود المتلقى عن الله بينهم، ثم لوجود عشرات الصحابة الذين يمكن الرجوع إليهم فى قراءة المكتوب، ولاستحالة مخالفتهم جميعاً بقراءة أخذت عن الخط ولم تُتلق عن النبى ﷺ، ولأن النبى ﷺ كان يقول للذين اختلفوا فى القراءة واحتكموا إليه: كذلك أُنزلت، ولأن الصحابى كان يرد على من يعترض على قراءته بقوله هكذا أقرأنى رسول الله ﷺ ولم يقل أحد منهم أبداً هكذا وجدتُها مكتوبة.

ج - هناك كلمات قرآنية كثيرة رسمت بطريقة هجائية معينة وموحدة فى كل المصاحف العثمانية، وقراءتها - عند جميع القراء بلا استثناء - تخالف هجاءها الذى رسمت به. ولو كانت القراءة تؤخذ عن الاجتهاد فى قراءة الكلمات حسب ما يقضى به هجاؤها أى رسم خطها، لوجدت قراءات تطابق هجاء تلك الكلمات .

ومن تلك الكلمات :

- ١ - كلمات : الصلاة، الزكاة، الحياة، الربا، مشكاة، مناة^(١): رسمت كلها بالواو بدلاً من الألف (الصلوة، الزكوة، الحياة، الربوا، مشكوة، منوة) ولم يقرأها أحد بالواو على الإطلاق .
- ٢ - «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» (البقرة ٩) «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ» (النساء ١٤٢) رُسمت كلمة «يخادعون» هنا في كل المصاحف بلا ألف بعد الحاء، ولم يقرأها أحد بلا ألف، بل كل قراءاتها بألف بعد الحاء.
- ٣ - كذلك «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا» (البقرة ٧٢) كتبت بلا ألف بعد الدال، ولم يقرأها أحد كذلك مع أن اللغة تسمح بذلك. وإنما قرئت بألف بعد الدال .
- ٤ - «وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِيسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ» (يوسف ٨٧) «أَفَلَمْ يَبِيسُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ» (الرعد ٣١) رُسمت بالألف بعد الياء الأولى «وَلَا تَيَاسُوا» «إِنَّهُ لَا يَبِيسُ» «أَفَلَمْ يَبِيسْ» ولم يقرأها أحد بهمزة بعد حرف المضارعة - كما يؤخذ من الرسم، وإنما قرئت بالهمزة قبل السين مباشرة.
- ٥ - «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ» (النمل ٢١) رسمت بألف بعد لا هكذا «... أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ» ولم يقرأها أحد كذلك أبداً، وإنما قرئت بإسقاط تلك الألف .
- ٦ - «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ» (الذاريات ٤٧) «بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ» (ن ٦) رسمت بياءين «... بِأَيْدٍ» «بِأَيْكُم» ولم يقرأ أحد بياءين .

(١) كلمة «مشكاة» في سورة النور ٢٥، وكلمة «مناة» في سورة النجم ٢٠، وكلمة «الربا» بالواو في القرآن كله ما عدا في «الروم» ٣٩ وتنتظر مواضع الكلمات الأخرى في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - لكثرتها .

ومع أن البحث قد يأتي بمزيد من الأمثلة، فإن هذه الأمثلة التي ذكرناها فيها كفاية لدحض فكرة أخذ القراءة عن الاجتهاد في قراءة رسم الكلمات (= الخط) على حسب ادعاء جولد تسيهر. وإنما أخذت القراءات تلقياً عن النبي ﷺ، ثم عن تلقى عنه ﷺ، ثم عن تلقى عن تلقى عنه ﷺ، في سلاسل إسناد ثابتة ثبوتاً علمياً. (١)

د - ومما يقطع بأن القراءات نشأت تلقياً - لأخذاً من الرسم - أن أئمة القراءات كانوا يخالفون لهجاتهم الأصلية أعنى لهجات قبائلهم - وهم قد نشئوا عليها ويعتزون بلهجاتهم الأصلية كل الاعتزاز - كانوا يخالفونها في قراءة القرآن، اتباعاً لما تلقوه. وإن كان غير مانسثوا عليه. ونضرب لذلك المثليين الآتين .

- أولهما أن الإمام السبعي أبا عمرو بن العلاء تيمى عريق. وقبيلة تميم تنطق كلمة «مُرِّيَّة» بضم الميم، وقد سئل أبو عمرو عن الأكثر في كلام العرب أهو «مُرِّيَّة» بالضم أم «مِرِّيَّة» بكسر الميم. فأجاب أنها بالضم أكثر في كلام العرب. فسئل لماذا إذاً يقرؤها بالكسر (أى فى مثل قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ (هود ١٧) - مع أن الضم لغته (= لهجته)، وأكثر العرب ينطقونها بالضم أيضاً؟ فقال «كذلك أقرئتها هناك» يعنى بالحجاز» (٢).

- كذلك فإن قريشاً وأهل الحجاز لم يكونوا يحققون الهمزة، ولكن لما نزل القرآن بالهمز همزوا. قال على رضى الله عنه وكرم وجهه «نزل القرآن بلسان قريش، وليسوا بأصحاب نبر (= همز)، ولولا أن جبريل (عليه

(١) ينظر فى هذه السلاسل «وثيقة نقل النص القرآن الكريم من رسول الله ﷺ إلى أمته»

د. محمد حسن حسن جبل ص.

(٢) ينظر جمال الفراء ٢/ ٤٥٠ .

السلام) نزل بالنبر على النبي ﷺ ما همزنا» (١) اهـ. والإمام السبعي عبد الله بن كثير - وهو حجازي كان يهزم في القراءة تبعاً لما رواه عن شيوخه. (٢) والإمام السبعي أبو عمرو (وهو تميمي من لغته تحقيق الهمز) كان لا يهزم تبعاً لما رواه عن شيوخه أيضاً (٣).

هـ - بعدما سبق من شواهد تاريخية نظم إليه واقعاً تاريخياً آخر هو الاختلاف في قراءة كلمات من القرآن الكريم وقع بين الصحابة في حياة النبي ﷺ، وتحاكم إليه ﷺ المختلفون. وهذا الاختلاف والتحاكم إليه ﷺ ثابتان ثبوتاً تاريخياً يقينياً لاسبيل إلى التمازى فيه.

لقد سجل البخاري واقعة من وقائع الاختلاف بين اثنين من كبار الصحابة في القراءة واحتكامهم إلى رسول الله وفصله بينهما. جاء فيه عن عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرأنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فليّته بردائه، فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت. فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: أَرَسَلَنِي إقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزلت. ثم قال: إقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه» (٤).

(١) شرح الرضى الشافعية ٣/ ٣١-٣٢.

(٢) ينظر «السبعة» لابن مجاهد ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) صحيح البخاري (الشعب) ٦/ ٢٢٧-٢٢٨.

- وهذا الاختلاف بين عمر وهشام بن حكيم سُجِّلَتْ واقَعَتْهُ في دواوين
صحيحة أخرى: صحيح مسلم، وجامع البيان للطبري. (١)
- وهناك واقعة ثانية الاختلاف في القراءة فيها وقع بين سيدنا أبي بن
كعب وصحابيين آخرين في سورة النحل. رواها الإمام مسلم والإمام
أحمد بن حنبل في مسنده والطبري في تفسيره (٢) وتروى هذه الواقعة
بين أبي وعبد الله بن مسعود (٣).
- وواقعة ثالثة وقع الاختلاف في القراءة فيها بين عمرو بن العاص
وصحابي آخر (٤).
- وواقعة رابعة بين سيدنا عبد الله بن مسعود ورجل من الصحابة. في
سورة حم (٥). ولعلها هي عين الواقعة التي بينه وبين أبي .
ويثبت وقوع الاختلافات القرآنية في زمن حياة رسول الله ﷺ -
قبل أن يكون للمصاحف المكتوبة أي وجود بنحو عشرين سنة ينهار الأساس
الذي بنى عليه جولد تسيهر ادعاء نشأة الاختلافات القرآنية عن
الاجتهادات في قراءة خط المصحف لخلوه - كان - من الإعجام، ويتبين
زيفه. فالوقائع المذكورة تشهد بوقوع الاختلافات القرآنية في حياة النبي
ﷺ، وأنه ﷺ أقرها حين الاحتكام إليه، وذلك حسب إنزال القرآن على
سبعة أحرف كما جاء في الحديث المتواتر عنه ﷺ.

(١) مسلم ٢٠٢/٢ .

(٢) صحيح مسلم ٢٠٣/٢، ومسنند أحمد ١٢٧/٥، وتفسير الطبري محمد الشيباني أحمد
ومحمود شاكر ١/٣٧، ٤٢ .

(٣) وينظر المرشد الوجيز ٨٧ .

(٤) ينظر المرشد الوجيز ص ٨٤ .

(٥) المستدرک ٢٢٣/٢ (عن المرشد الوجيز ٨٦ - ٨٧) .

٣- منهج المعالجة عند جولد تسيهر:

أ - التعرج فى المعالجة

معلوم أن تعرج الخط مثلاً أنه يَعْوَج كثيراً إلى اتجاهات مختلفة، وأوضح ما يكون التعرج إذا كان الاختلاف إلى الاتجاه المضاد خاصة. وهكذا كان منهج جولد تسيهر فى المعالجة.

فالمقصود بوصف منهج جولد تسيهر فى معالجة موضوعه بالتعرج هو أنه لا يضع الحقائق ثم يستخلص أى يأتى بخلاصة دلالاتها، وإنما يذكر ما يظن أو يوهم أنه معلومة تدل على أمر ما - مدحاً أو قدحاً، ثم يأتى بما يُخِلُّ بدلالاتها على هذا الأمر، ثم لا يتردد أيضاً فى اتجاه عام (إلى المدح أو القدح) وإنما يمدح مرة ويتراجع، ثم يقدح مرة ويتراجع وهكذا. والعامّة عندنا تعبر عن نحو هذا بقولهم «فلان يضرب ويلاقى» أو «يقول ويرد على نفسه».

وهذا المنهج فى المعالجة ليس سويّاً من وجهة النظر العلمية، لأنه يشير بليلة القارئ أو الدارس، ويكاد يترك له استخلاص المقررات والأحكام، فى حين أن الاستخلاص هو واجب الباحث أصلاً.

فإذا أضفنا هنا ما أكدته الشواهد من خبث طوية جولد تسيهر تبين لنا أن تلك البلبلة مقصودة لأنها تعكز الصورة فيسهل دس الفكر الخبيثة وخداع القارئ، كما أنها تدوخ القارئ وتستهلك تركيزه فيستسلم للانطباعات التى يدسها جولد تسيهر دون تمحيص وذلك بأثر الإرهاق الفكرى، وأخيراً فإن هذا المنهج يبدى جولد تسيهر فى صورة الباحث المنصف المدقق الذى يعطى كل أمر حقه، فيكتسب ثقة القارئ ليلعب به.

وهذه أمثلة من تعرج جولد تسيهر .

- فى (ص ١١ - ١٢) «من مذاهب التفسير» قال إنه لا يستبعد أن يكون من دواعى تغيير كلمة «تعزروه» - حسب ادعائه هو ذلك

التغيير - إلى تعززه (بالزاي فيهما أى فى الآية ٩ من سورة الفتح) خشية ماتصوره الكلمة الأولى من أن الله جل جلاله ينتظر المساعدة والمعونة من الناس. ثم رد على نفسه بما يلى أ - أنه ورد فى القرآن أن الله سينصر من ينصره وأشار إلى ثلاث آيات (آية ٤٠ من سورة الحج «ولينصرن الله من ينصره» وآية ٧ من سورة محمد، وآية ٨ من سورة الحشر) ثم جاهد لبيان الفرق بين التعزير والنصر (ب) - كما قال إنه يمكن أن يكون الأصل «تعززه» (بزاين) وغيرت إلى «تعززه» تصحيفاً. فانظر إلى التأرجح والهزل فى كلام هو الجد كله.

وغاب عنه أن التعزير تعظيم وتقوية أمر. والمقصود به تعظيم أمر الرسول ﷺ وتقويته، وأن النصر معناه المعونة والمساعدة والمقصود به فى الآيات تأييد دين الله بكل صورة تعد كذلك .

وفى (ص ١٩) بشأن الزيادات التفسيرية فى مثل «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى»: صلاة العصر - عبّر بلا تردد عن أن مثل هذا هو زيادات تفسيرية. ثم عاد فى ص ٢١ ليقول عن هذه الزيادات «وليس بواضح حقاً ما قصد من هذه الزيادات. هل قصد أصحابها إلى تصحيح حقيقى للنص، أو إلى إضافة تعليقات موضحة (أى تفسيرية) فقط لاتغير النص فى شىء ثم نَظَر إليها جيل متأخر بالنظرة الأولى» .

وهكذا يدعى جازماً ثم يتراجع عن الجزم لإثارة البلبلة .

وفى (ص ٢٨) قال إن هناك من قرأ «فخاف ربك» بدلاً من «فخشينا» فى قوله تعالى «فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً» (الكهف ٨٠) . ولما كان ذلك صريحاً فى نسبة الخوف إلى

الله تعالى، وينقض مازعمه من أن كثيراً من تغييرات النص قصد بها تنزيه الله تعالى ورسوله ﷺ عما لا يليق قال «إن رعاية اجتناب العبارات التي ربما بدت غير لائقة بمقام الألوهية لم تكن مقصودة دائماً في اختلاف القراءات» ونقول إن إجلال المسلمين مقام الألوهية يمنعهم من تغيير كلام الله منعاً تاماً دائماً. ولكن اليهود ينسبون إلى المسلمين مثل ما فعلوه هم .

وفى (ص ٣٢) جاء بشهادة تهدم كل مادعاه من تغييرات في النص الكريم بباعث تنزيه الله ورسوله فقال «إن التغييرات اللفظية التي أجريت بباعث اللياقة وحسن الأدب في النص الأصلي للعهد القديم (يعنى التوراة) قد وصلت إلى اعتماد نهائى. (أى اعتمدت وعُدَّت من صميم النص) على حين لم تنجح دائماً مثل هذه التغييرات في نص القرآن في أن تحتفظ بوجودها في النص المتلقى بالقبول» أى لم تُقبل كقراءة معتمدة. ولو قال لم تنجح أبداً لكان صادقاً. وهذه شهادة تهدم شطر مازعمه .

فى (ص ٣٢) زعم أن قراءة «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط» (آل عمران ١٨) تشير فى النفس شيئاً من شهادة الله لنفسه وشهادة الملائكة له. ثم ادعى أن ذلك الذى يُستشعر من تلك القراءة دفع إلى تغيير القراءة إلى «شهداء الله» إلخ مع ربط ذلك بالآية السابقة. ثم عاد ليقول إن الذين أحدثوا تلك (القراءة) الأخيرة لم يحدثوا مثلها فى قوله تعالى «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ» (النساء ١٦٦) ولما وجد ادعاه الأول منهجاً علل عدم التغيير فى الآية الأخيرة بصعوبة التعديل .

فى (ص ٣٧) زعم أن أحد ثقات القراء عدّل قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ (الأنبياء ١١٢) إلى «قَالَ رَبِّىَّ أَحْكُم بِالْحَقِّ» ثم قال ويبدو أن تصحيحه لم يجد قبولاً ولم يسأل جولد تسيهر نفسه: فلماذا يذكرها إذاً مادامت لم تقبل ؟

(ص ٣٩) فى قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ قال إنه غلبت على نفوس الأتقياء شبهة لا أساس له أصلاً عند الإمعان اللغوى « فقرءوا بإسقاط لفظ "مثل" » ولم يسأل نفسه مادامت مجرد شبهة، ومادامت لا أساس لها أصلاً عند الإمعان اللغوى، والأهم من ذلك مادامت لم تثبت فى المصحف، وليست قراءة معتمدة = فلماذا يحفل بها فى القراءات، ويجعلها من مسائلها ؟

(ص ٤٣) بشأن قوله تعالى ﴿أَرْسَلْهُمْنَا غَدَاً يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ (يوسف ١١٢) اجتهد ليجعل كلمة نلعب هى الأساسية والأصلية. ثم عاد فقال إن هذه القراءة الأصلية اطرحت لتعظيم أولاد الأنبياء (أى تنزيههم عن اللعب)، ثم قال إن من قال بهذا (التصويب) لم يُلق بالاً لما جاء فى الآية ١٧ (أى التى تذكر ادعاءهم كذباً أن الذئب أكل أخاهم) ونقول ولماذا أُلقيَ هؤلاء هاجس (التصويب) الذى ادعاه، فاستشهد بالآية له؟ ثم لماذا اقتصر على الآية ١٧ فى حين أن الآيات من الثامنة إلى الثامنة عشرة أو العشرين تذكر جرائم بنى إسرائيل قومه ؟

وبعدما زعم الكثير من سماه «حرية» فى إنشاء قراءات لتنزيه الله ورسوله عما لا يليق، أو لغير ذلك عاد (فى ص ٤٥) ليقول إن هناك من كان يرفض تلك التفسيرات التنزيهية التى يبدو عدم أهميتها. ونسب ذلك الرفض إلى عبد الله بن مسعود الذى كثيراً ما تاجر باسمه

رضى الله عنه أنه رفض تغيير «وكونوا مع الصادقين» (التوبة ١١٩) إلى (وكونوا من الصادقين)، وبدلاً من أن يتخذ من ذلك مؤشراً على الالتزام جعلها استثناء .

وأخيراً فبعد أن تاجر بالروايات التي تنسب إلى كتبة القرآن أخطاء نحوية ظهرت في الرسم (ص ٤٦ - ٤٧)، وذكر أن النحاة أجهدوا أنفسهم ليبينوا أنه ليس هناك خطأ. قال إن المدرسة القديمة (يعنى الأجيال السابقة في القرنين الأول والثاني) لم تحاول ذلك بل آثرت في صدق وأمانة أن تبقى النص على ما يعتوره من مآخذ «أى أن تلك الأجيال لم تمس النص بأى تغيير، وواضح أن أجيال النحاة الذين تحدث عنهم لم يغيروا أيضاً وإنما كانوا يُخَرِّجُونَ الواقع مع بقائه كما هو - وكان ينبغي أن يتخذ من ذلك مؤشراً على تقديس علماء المسلمين وعامتهم للنص، وأنهم لم يغيروه. لكنه لف العبارة لإيهام التغيير وصرف النظر عن دلالتها .

فهذه الأمثلة كلها تكشف أسلوب جولد تسيهر الملتوى في المعالجة .

- ب تمويهات ومغالطات

ارتكب جولد تسيهر مجموعة من الأغلاط التي أقنعنا سلوكه في التعرض لموضوع نشأة القراءات القرآنية هذا بأن أكثر ماسميناه أغلاطاً هو أكاذيب وتمويهات تعمدتها، لإثارة اللبس والتشكيك ولتوطئة المقام والسياق ليث افتراءاته .

فمن التمويهات المقصود بها تضخيم شأن أطراف الاختلاف في القراءات وتضخيم الاختلاف نفسه.

١ - نسبته مازعمه (قراءة) «قال ربي أحكّم بالحق» في قول تعالى «قال ربّ احكّم بالحق» (الأنبياء ١١٢) إلى «أحد ثقات القراء» وتبين أن المقصود هو الضحّاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ هـ) والضحّاك هذا ليس من رجال القراءات. فكل ما ذكره ابن الجزري عنه في هذا «وردت عنه الرواية في حروف القرآن. سمع سعيد بن جبير وأخذ عنه التفسير»^(١). فلم يقل إنه عرض أو قرأ على فلان ولا قرأ أو عرض عليه فلان». وفي تهذيب التهذيب - وهو خاص بتراجم رواة الحديث الشريف - وثقه بعضهم وضعفه آخرون، وأنه «إنما اشتهر بالتفسير»، ونفى كثيرون أنه لقي أحداً من الصحابة أي أنه ليس تابعياً.^(٢) والخلاصة أنه ليس من القراء أصلاً فضلاً عن أن يكون من ثقاتهم .

٢ - ص ٤٩ قال «وقد قرر الخليفة عمر "أن القرآن صواب كله" وفي رواية «كاف شاف» ما لم تجعل آية رحمة عذاباً، وآية عذاب رحمة» ثم قال:

(١) غاية النهاية ١/٣٣٧ .

(٢) ينظر «تهذيب التهذيب» ٤/٤٥٣ - ٤٥٤ .

«أى مادام لم يحصل اختلاف أساسى فى معنى الألفاظ. فالمعول إذاً فى المرتبة الأولى الأولى على المعنى الذى يستبطنه النص، لا على الاحتفاظ المتناهى فى الدقة بقراء معينة.»^(١) ثم قال «وهو رأى انتهى - فى ما يتعلق بتلاوة القرآن فى مراسيم العبادة - إلى القول بجواز قراءة النص المطابق للمعنى وإن لم يطابق حرفية اللفظ (القراءة بالمعنى)، ثم أحال على الإتقان للسيوطى. وهذه الفقرة فيها ما يلى:

(أ) عبارة «إن القرآن...» إلخ هى حديث نبوى حسن، وليس من كلام عمر، وإنما هو مَوْجَّه من النبى ﷺ إلى عمر ونصه «يا عمر إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً، أو عذاباً رحمة» وجاء فى حديث آخر موجه إلى عمر أيضاً «أنزل القرآن على سبعة أحرف. كلها شاف كاف»^(٢).

(ب) تفسيره للحديث يوهم أن الأمر كان وما زال مطلقاً من أى تقيد بألفاظ النص. وهذا إيهام خبيث. فقد حفظ النص الكريم بوسيلتين: التلقى عَرَضاً، والتدوين خطياً وكلاهما كان يتم فور نزول القرآن وبين يدي النبى ﷺ^(٣)، والتزم الخاصة بهذا. ومن أجل هذا فإن المصاحف المخالفة للنص المعروف المدون جُمِعَتْ وأُحْرِقَتْ فى عهد عثمان رضى الله عنه.^(٤) لكن يسر الله للعامة وأصحاب الظروف غير المواتية

(١) ينظر تهذيب التهذيب ٤/٤٥٣ - ٤٥٤.

(٢) ينظر تفسير الطبرى (تحد الشيخين شاكر) ٢٦/١ و ٢٧.

(٣) ينظر تفصيل ذلك وتوثيقه فى «وثيقة نقل النص القرآنى الكريم من رسول الله ﷺ

إلى أمته. د. محمد حسن جبل - ١٤٢٣ - ١٤٠٨ -

(٤) ينظر المرجع السابق ٢٢٦

لدقة الاستظهار (الخادم والعجوز والشيخ العاسى والعبد والأمة) أن يقرأوا كما تيسر لهم أى كلمة بدلاً من كلمة نسيت مثلاً - لانصاً (غير النص)، وأن يختموا الآية - إذا التبس عليهم ختامها - بأى أسماء الله الحسنى بشرط أن لا يختموا آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة. فهذه العبارة «مالم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة» ليست عامة كما يوهم كلام جولد تسيهر، وإنما هى خاصة **بخواتيم الآيات** - كما جاء صريحاً فى حديث صحيح نصه أنه ﷺ قال: إن جبريل قال اقرأوا القرآن على حرف. فقال ميكائيل: استرده. فقال: على حرفين. حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف. فقال: كلها شاف كاف، مالم يختم آية عذاب برحمة. أو آية رحمة بعذاب. كقولك هلم وتعال»^(١) اهـ . فكلام جولد تسيهر مشحون بالإيهامات الباطلة .

ج - كلامه عن جواز قراءة النص بالمعنى فى **مراسيم العبادة**، وإحالاته على الإتيان النوع الثانى والعشرون يوهم بأمرين **الأول** عبارة «مراسيم العبادة» عبارة عامة تشمل كل العبادات. ولا أعرف عبادة مراسمها قراءة القرآن إلا الصلاة. ولم أجد أحداً يجيز قراءة الفاتحة أو القرآن بالمعنى فى الصلاة.^(٢) حسب هذا التعميم الذى فى عبارته فهذا الإيهام الأول لأصل له .

وأما الأمر الثانى فإن إحالاته على الإتيان توهم أن هناك رأياً يستحق الذكر يجيز قراءة القرآن بالمعنى، وبالرجوع إلى الإتيان وجدت العبارة الآتية: «وأما مَنْ يقول إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد

(١) ينظر تفسير الطبرى (شاكر) ٤٣/١ رقم ٤٠، ٥٠ رقم ٤٧ .

(٢) ينظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيرى ٢٢٩/١ - ٢٣٠ حكم العاجز عن

قراءة الفاتحة فى الصلاة حيث قال الشافعية والحنابلة بأن من عجز عن الفاتحة يقرأ قدرأ من آيات القرآن يساويها فإن عجز ذكر الله بقدرها .

كذب»^(١) فهو ينفى نفياً قاطعاً وجود قول بهذا، على عكس ما يوهمه كلام جولد تسيهر تماماً.

٣ - فى ص ٦٢ من كتابه قال جولد تسيهر «**والمتكلمون على وجه الخصوص** هم الذين لم يرتضوا الحد من حريتهم تجاه النص القرآنى المأثور. وهم يقولون «إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءة وأوجه وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها» فلنتأمل أولاً قوله «والمتكلمون على وجه الخصوص» فهذه العبارة توهم أن **كل المتكلمين** هم على هذا الرأى وليس فريقاً منهم فقط. كذلك تعبيره بأنهم «لم يرتضوا الحد من حريتهم» توهم أن هذا كان موقفاً قوياً جريئاً متحدياً. هذا فى حين أن عبارة السيوطى فى الإتيان نصها ما يأتى «وقال قوم من المتكلمين إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءة وأوجه وأحرف - إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها. وأبى ذلك أهل الحق، وأنكروه، وخطئوا من قال به اهـ.»^(٢) فهو قول فريق منهم لا كلهم، وهو فريق ضعيف، لأنه غير أهل الحق. وهذا عكس ما أوهم به.

٤ - (فى ص ٥٤) ارتكب تمويهاً فجاً بقصد إثارة اللبس والبلبله لا غير، إذ قال عن حديث «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه» بهذه الرواية المشهورة وهى الرواية التى لا تفسر السبعة فيها إلا بقراءات ينصب التنوع فيها على الألفاظ، لا المعانى، وقد تحدث عنها جولد تسيهر على أنها «اختلاف فى قراءات نص القرآن» فى صفحتين. قال جولد تسيهر عن هذا الحديث إن أبا عبيد

(١) ينظر الإتيان للسيوطى (عالم الكتب) ٧٧/١.

(٢) هذا من تعليق مترجم كتاب مذاهب التفسير د. عبد الحليم النجار رحمه الله (ص ٦٢).

«دَمَغَهُ بِأَنَّهُ شَاذٌ غَيْرُ مُسْنَدٍ»^(١). وعلى الرغم من أن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف متاح بهذه الرواية المنصبة على الألفاظ فى كثير من الكتب الأصول التى اطلع عليها جولد تسيهر قطعاً، لأنه ذكرها فى مؤلفه هذا = ومنها تفسير الطبرى (الروايات من رقم ٧ - إلى رقم ٦٦)^(٢) ومنها ما فى «المرشد الوجيز» لأبى شامة (عشرات الروايات من مصادر متعددة من كتب السنة حيث عقد له فصلاً خاصاً)^(٣). هذا بالإضافة إلى ما فى فضائل القرآن لأبى عبيد وكتب السنن والإتقان للسيوطى، وكذلك على الرغم من أنه اطلع ولا بد على أسماء واحد وعشرين صحابياً ذكر السيوطى فى الإتقان أنهم رووا هذا الحديث، واطلع على قول السيوطى فى الإتقان بعد ذكر تلك الأسماء «وقد نص أبو عبيد على تواتره»^(٤) على الرغم من ذلك كله فإنه يذهب إلى كتاب «ألف باء» ليوסף بن محمد البلوى (ت ٦٠٤) لينسب إليه معلومة تقول إن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف «الذى روى فى مجاميع السنة المعتبر بها» (هكذا قال) «دَمَغَهُ أَبُو عبيد بأنه شاذٌ غير مُسْنَدٍ» وبمراجعة^(٥) كتاب «ألف باء» هذا نجده يقول إن أبا عبيد صحح حديث «إن هذا القرآن

(١) ينظر مذاهب التفسير ٥٣ - ٥٤ .

(٢) ينظر تفسير الطبرى (شاکر) ٢١/١ - ٦٧ .

(٣) ينظر المرشد الوجيز ٧٧ - ٩٠ .

(٤) الإتقان (عالم الكتب) ٤٥/١ - النوع السادس عشر .

(٥) الذى راجع د. حسن ضياء الدين العتر ينظر كتابه «الأحرف السبعة» ١١٠ - ١١١ .

أنزل على سبعة أحرف فاقروا ماتيسر منه» (أى الحديث بروايته المشهورة التى كل كلاماً فى هذه الفقرة عنها) ثم يذكر البلوى حديثاً آخر هو «أنزل القرآن على سبعة أحرف: حلال وحرام، وأمر ونهى، وخبر من كان قبلكم، وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب أمثال» ثم يذكر البلوى قول أبى عبيد فى هذا الحديث الأخير «ولسنا ندرى ماوجه هذا الحديث، لأنه شاذ غير مسند» هذا هو ما فى كتاب «ألف باء» فانظر إلى مدى فقد ذلك المستشرق الأمانة فنسب حكماً على حديث قليل الورد غريب المعنى إلى حديث مشهور متواتر مستغلاً كتاباً ظن أن القراء لن يصلوا إليه .

٥ - فى ص ٤٦ يقول «روى عن الزبير بن العوام أنه سأل أبان بن عثمان بن عفان عن الآية ١٦٢ من سورة النساء «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة» حيث لا يطابق المعطوف «والمقيمين» ما عطف عليه. فأجابه أبان بأن هذا من خطأ الكاتب» ولا أدري هل فات ذلك المستشرق الذى شهد له إخوانه وأساتذته بالتفوق عليهم أنه لا يتأتى أن يستفهم الزبير (ت ٣٦ هـ عن ٦٤ عاماً) وهو من كبار الصحابة قدراً وسناً وفى خمسينيات عمره من أبان (ت ١٠٥ هـ) الذى كان فى العقد الثانى من عمره عن شأن قرأتى؟ إن الزبير هنا هو الزبير بن عبد الله بن ربيعة (ت ١٥٨ هـ). وقد جاء سؤاله هذا فى «فضائل القرآن» لأبى عبيد ١٦٢ وفى كتاب المصاحف ص ٤٢. وفى الطبرى (شاكر) ٣٩٤/٩ وينظر عنه تهذيب التهذيب ٣١٦/٣ فهل يريد جولد تسيهر أن يوهم أن كبار الصحابة كانوا يأخذون العلم عن صغار التابعين .

- ج (الإيهام)

(١) **أولاً: التوهم أو الإيهام** بأن القراءة تؤخذ وتعتمد وتحسب على المسلمين قرآناً بمجرد نسبتها إلى فلان أو فلان هكذا دون ضابط. وفي سياق هذا الإيهام أخذ يتاجر بأسماء سادتنا أبى بن كعب، عبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وأنس بن مالك وغيرهم من الصحابة وسيدتنا عائشة وحفصة أمى المؤمنين. ثم تنزل إلى شريح وعامر الشعبي وأبان والزهرى وابن المسيب من التابعين - والثلاثة الأولون ليسوا من القراء، ثم تنزل إلى حماد الراوية وأبى السوار الغنوى الأعرابى ... وجهل أو تجاهل أن ضابط القراءة الصحيحة المعتمدة الملزمة لكل المسلمين قد وضع منذ السنة الثانية عشرة للهجرة، وذلك حين جُمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر رضى الله عنه: حيث اشترط لإثبات القراءة فى المصحف البكرى شرطان: أن يكون النص متلقى من النبى ﷺ مشافهة، وأن يكون كتب - حين نزوله - بين يديه ﷺ وذلك مع التوثق لتحقيق كل من الشرطين بشاهدين. (١) وقد كان التمسك بالشرطين صارماً لدرجة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو كبير لجنة ذلك الجمع البكرى كان يقرأ فى سورة الفاتحة (صراطٌ من أنعمت عليهم) (٢) بدلاً من «صراط الذين أنعمت عليهم»، وكان يقرأ هو وأبى بن كعب - أحد أعلام الصحابة فى القراءة «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» (٣) ولم تكتب كذلك. وكان عمر هذا وزيد بن ثابت وهو عضو لجنة الجمع البكرى هذه وكاتبها يحفظان آية الرجم

(١) ينظر كتاب «وثيقة نقل النص القرآنى الكريم من رسول الله ﷺ إلى أمته» ص ١٧٩.

(٢) ينظر تفسير القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» ١٤٩/١.

(٣) السابق ١٥٠/١.

«الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ورغم ذلك لم يسجلها في المصحف في الجُمعة البكر، وبالتالي لم تسجل في النسخ العثمانية، والسبب أن شرط كتابتها بين يدي النبي ﷺ وسلم لم يتحقق. ولدينا رواية موثقة بذلك عن التابعي الكبير الثقة كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت ^(١) ومن أدلة الصرامة في الالتزام بالشرطين أنه روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يقرأ الآية رقم ١٩ من سورة ق (وجاءت سكرة الحق بالموت) ^(٢)، ولم تكتب في المصحف إلا «وجاءت سكرة الموت بالحق» وما يوثق صرامة ذلك الالتزام أيضاً أن الخليفين الراشدين عثمان وعلياً لم يقبلأ أى تغيير فى رسم المصاحف العثمانية - التى انتُسخَت من مصحف أبى بكر، (ولانشك أن رسمها كان صورة من رسمه إلا فى كلمات معدودة) ^(٣) - نعم لم يقبلأ أى تغيير فى رسمها رغم أن

(١) ينظر فى قصة آية الرجم «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (نشر مكتبة التراث)

٣/ ٣٦٠ - ٣٦١ وينظر عن كثير بن الصلت تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢) ينظر شواذ القراءات (مطبوع بعنوان شواذ القرآن) ص ١٤٥ .

(٣) نعم لانشك فى ذلك أ - لأن مصاحف عثمان انتسخت من مصحف أبى بكر (انظر

كتاب «وثيقة نقل ..» المذكور قبل أربع تعليقات هنا ص ٨٩ ب - ولأن الكاتب

لمصاحف عثمان أو المشرف على كتابتها هو زيد الذى كتب مصحف أبى بكر،

ج - ولأنه لم يُستَحْدَثْ شئ فى أمر الكتابة فى الزمن الذى بين كتابة مصحف أبى بكر

(١٢ هـ) ونسخ مصاحف عثمان (٢٦ هـ). أما الكلمات المعدودة فهى التى أقرت لجنة

المصاحف العثمانية إدخالها من قراءات ثابتة حيث سمح تعدد المصاحف العثمانية

بكتابتها فى بعض النسخ وكتابة القراءة الأولى فى غيرها وعدد هذه الكلمات ست

وخمسون تشول إلى تسع وثلاثين كلمة بعد حذف المكرر. ينظر رسم المصحف . غانم

الرسم كان فيه كلمات خمس أو أقل لاحظ عثمان أنها لا تجرى على الإعراب الشائع،^(١) وكلمة عَنَسَى غير قراءة عَلِيٍّ^(٢) رضى الله عنهما، وكان فى سلطانهما أن يغيرا، لأن ذلك كان فى عهد خلافة كل منهما. ولكن عثمان قال «لا تغيروها»^(٣)، وعلياً قال «إن القرآن لا يهاج اليوم (أى لا يغير) ولا يحول»^(٤).

(١) الكلمات هى «والصابئون» فى الآية ٦٩ من سورة المائدة «حيث يتبادر أن تكون «والصابين» عطفاً على اسم إن الذي فى صدر الآية «إن الذين» وتخرجها أنها معطوفة على محل إن مع اسمها وهو الرفع بالابتداء. ولهذا نظائر وشواهد عربية. الكلمة الثانية هى «والمقيمين» فى الآية ١٦٢ من سورة النساء حيث يتبادر أن تكون «والمقيمون» عطفاً على «الراسخون» فى «لكن الراسخون». ومثلها كلمة «والصابرين» فى الآية ١٧٧ من سورة البقرة حيث يتبادر أن تكون «والصابرون» عطفاً على محل «من» فى قوله تعالى «ولكن البر من آمن» مثلما عطفت عليها كلمة «الموفون» بعهدهم إذا عاهدوا» التى سبقت كلمة «والصابرين» وتخرج كلمتى «والمقيمين»، «والصابرين» فى الآيتين المذكورتين هنا أنهما قطعتا عن التبعية بالعطف للتنويه بأهمية مسمى الصلاة والصابرين كل فى سياقها. كأن المعنى وخص أو اذكر «المقيمين» و«الصابرين». وهذا أسلوب عربى شائع. الكلمة الرابعة «فأصدق وأكن من الصالحين» (المنافقون ١٠) حيث يتبادر أن تكون «وأكون» بالنصب، وتخرجها أنها معطوفة على محل شرط «لولا» التحضيضية السابقة لها فى الآية. ولهذا نظائر فى العربية أيضاً، وأخيراً فقرة «إن هذان لساخران» هكذا (طه ٦٣) هى على لهجة كثير من العرب يلزمون المثنى الألف. ينظر تفصيل ما ذكر هنا فى كتاب دفاع عن القرآن الكريم د. محمد حسن حسن جبل ص ٨١ - ٩٢ والمراجع التى ذكرت هناك.

(٢) الكلمة هى «طلع» فى قوله تعالى «وظلح منضود» (الواقعة ٢٩) حيث كان على يقرأها «وظلح».

(٣) ينظر فضائل القرآن لأبى عبيد (تدوہى سليمان) ص ١٦٠.

(٤) ينظر تفسير الطبرى فى الآية ١٤٨ من سورة الشعراء.

٢ - فى كلامه عن تعدد القراءات كتب نحو ثمانى صفحات (٥٦ - ٦٣)

حشد فيها أوهاماً وأغلاطاً تحتاج إلى الوقوف مع كل جملة فيها .

٣ - فقد ظن أن أوهم أن القراءات السبع جاءت تفسيراً لحديث إجازة قراءة

القرآن على سبعة أحرف (ص ٥٦) وكرر ذلك الإيهام فى ص ٥٩

موحماً أيضاً أن الربط بين حديث الأحرف السبعة والقراءات هو من

عمل «بعض رجال الدين البارزين». والحقيقة أن اختيار ابن مجاهد

القراءات السبع كان أساسه اختيار القراءات التى اشتهرت فى

الأمصار الخمسة: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام، لأنها هى

التي أرسلت إليها مصاحف عثمان، وأصبح كل مصحف فيها

بقارئ، فازدهرت فيها قراءة القرآن وتنافس القراء فيها فى توثيق

أسناد قراءاتهم، وفى إحكام القراءة وإتقانها. وكان ابن مجاهد عالم

قراءات ضليعاً معترفاً بإمامته. فاختار من كل مصر قارئاً معترفاً له

بالإمامة، واختار من الكوفة ثلاثة لا واحداً، لأنها كانت أزخر تلك

الأمصار بالقراء المعترف لهم بالإتقان والإمامة - منذ أرسل إليها

ابن مسعود ثم أبو عبد الرحمن السلمى مع مصحفها، ثم اتخذها

على رضى الله عنهم عاصمة لخلافته. وربما كان فى ذهن ابن مجاهد

نوع من التمييز بالسبعة: لكنه يقيناً لم يربط بين القراءات السبع

والأحرف السبعة، وإنما وقع هذا الالتباس بعد ابن مجاهد من محدودى

العلم بمسألة تعدد القراءات - ولذا هاجم بعض علماء القراءات ابن

مجاهد لتسببه فى هذا الالتباس باقتصاره على اختيار قراءات سبعة

أئمة .

وهناك إيهامات أخرى عالجناها علاجاً مطولاً فى مواضع مناسبة .

د - (التناقض)

على الرغم من أن جولد تسيهر شحن الصفحات السبعين التي كتبها عن القراءات بالأباطيل التي تقصد إلى إثارة اللبس بادعاء إثبات (قراءات) بلا ضابط ولا رابط، فإنه اضطر إلى الاعتراف بأن أمثلة كثيرة من هذه (القراءات) الخارجة على ضوابط قبول القراءة (: الرواية الصحيحة، ثم موافقة رسم أحد المصاحف العثمانية) لم تقبل ولم تثبت. - فيقول (في ص ٧) « فلم تستبعد تلك القراءات المختلفة لصالح نص اعتُمدت صحته وحده » ثم يعود ويعترف بوقوع هذا الاستبعاد في كثير من (القراءات) التي زعمها .

- فيقول عن قراءة الضحاك « قال ربي أحكم بالحق » بدلاً من « .. رب احكم .. » (الأنبياء ١١٢) « إن تصحيحه (يقصد قراءته هذه) لم يجد قبولاً » (ص ٣٧) .

- وينقل أن الصحابي سعد بن أبي وقاص « رد » قراءة سعيد بن المسيب « نَسَّاهَا » بدلاً من « نُسِّهَهَا » في قوله تعالى « مانسَخ من آية أو ننسها » (البقرة ١٠٦) قائلاً إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب » (ص ٣٧ - ٣٨) .

- وينقل أن الصحابي عبد الله بن مسعود رد ما زعمه جولد تسيهر قراءة ذكر فيها الحرف « من » بدلاً من الحرف « مع » في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (التوبة ١١٩) (ص ٤٥ - ٤٦) .

- ويعترف بأن القدماء « آثروا في صدق وأمانة أن يبتوا نص الوحي على ما يعتوره من مأخذ » ص ٤٦ ويقصد بالمأخذ ما قيل عن كلمات في القرآن إن فيها خطأ نحويًا - منها « لكن الراسخون في العلم

منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك
والمقيمين الصلاة» (النساء ١٦٢).

- ويعترف في صراحة بأن الروايات المنسوبة إلى أمنا السيدة عائشة وإلى
ابن عباس وأبان وتذكر وقوع أخطاء في النحو من كتاب المصاحف
العثمانية. هي روايات «غير تاريخية تماماً» أى ليست موثقة.

- وفى اعتراف خطير يقول (فى ص ٣٢) «إن التغييرات اللفظية التى
أجريت بباعث اللياقة وحسن الآدب فى النص الأصيل للعهد
القديم (يعنى: التوراة) قد وصلت إلى اعتماد نهائى، على حين لم
تنجح دائماً مثل هذه التغييرات فى نص القرآن للاحتفاظ بوجودها
فى النص المتلقى بالقبول» أى أن العبث الذى وقع فى نص التوراة
قُبِلَ واعتمد فى حين أن محاولات تغيير شىء فى نص القرآن لم تنجح
دائماً. وكان ينبغى أن يقول لم تنجح أبداً.

- وقد اعترف جولد تسيهر نفسه بأن علماء المسلمين كانوا واقفين
بالمرصاد لأدنى محاولات الخروج على ضوابط القراءة، بل والأداء
المعتمد، فابن شنبوذ وأبو بكر العطار وغيرهما حوكموا^(١) محاكمة
قاسية على مخالفات بعضها مجرد مخالفة أدائية، وبعضها خروج
على القراءة المعتمدة. وهذه وقائع تاريخية عرّفها وأقربها جولد
تسيهر وكانت كفيلة بتنبيهه إلى التزام الجادة فى البحث لو كان من
أهلها.

(١) ينظر غاية النهاية ٥٢/٢ - ٥٦ وفيه أمثلة لقراءة ابن شنبوذ بالشاذ، و١/١٨٣ ولم
يذكر عنه أمثلة، لكن جولد تسيهر اعترف بمحاكمته، و ٥٧/٢ محمد بن أحمد بن
بضحان الذى حوكم من أجل إدغامه الراء فى اللام فى قوله تعالى ﴿والحمير
لتركبوها﴾ (النحل ٨) ناسباً ذلك إلى أبى عمرو فى الشاطبية.

هـ - المحاجة فى القراءات بما ليس قراءات على الحقيقة .

وهو خطأ منهجى من حيث إنه نوع من التقول، لأنه ينسب إلينا ما لا نعترف به، ثم يحتج علينا به .

لقد جاء جولد بسبعة وأربعين مثلاً للقراءات التى بنى عليها كل أحكامه فى هذا المجال . ولكن تبين أنه من بين ذلك العدد لا يعد قراءات صحيحة إلا ما يلى :

الأعراف ٥٧ «بُشْرًا» / «نُشْرًا» .

النساء ٩٤ «فَتَشَبَّهُوا» / «فَتَشَبَّهْتُوا» .

المائدة ٦ «وَأَرْجَلَكُمْ» / «وَأَرْجِلَكُمْ» .

الصفات ١٢ «بَلْ عَجِبْتَ» / «بَلْ عَجِبْتُ»

المائدة ١١٢ «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» / «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» .

آل عمران ١٦١ «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلُّ» / «أَنْ يُكَلَّ» .

يوسف ١٢ «... يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ» / «تَرْتَعِ وَتَلْعَبُ» .

يونس ٢٢ «يَسِيرُكُمْ» / «يَنْشُرُكُمْ» .

ثم هناك موضعان كل منهما فيه قراءات واردة وأضاف إليه جولد تسيه قراءات أخرى منكرة ليتاجر بها :

الحجر ٨ «تُنْزَلُ، تَنْزَلُ، تُنْزَلُ» / وأضاف هو تَنْزَلُ .

البقرة ١٠٦ «أَوْ تُنْسِئَهَا، نُسْأُهَا، أَوْ نُنَاسِئَهَا» / وأضاف هو تَنْسِئَهَا، تَنْسَاها .

وفى قوله تعالى فى سورة .

الرعد ٤٣ «وَمِنْ عِنْدِهِ» جاء بقراءة «وَمِنْ عِنْدِهِ» وهى من الأربع

الشاذة، وأضاف منكروه «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمٌ»

أما باقى الأمثلة فهى ليست قراءات البتة فلا هى من القراءات

السبع، ولا الثلاث التى تكمل السبع عشرًا، بل ولا من القراءات الأربع

الشاذة التى بإضافتها يقال إن القراءات أربع عشرة وذلك ماعدا القراءة

رقم (٨) «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمٌ» فإنها من هذه الأربع الشاذة .

أى أن جولد تسيهر جاء بثمانية أمثلة صحيحة، وثلاثة أمثلة خلط فيهما الصحيح بالفاسد، ثم بستة وثلاثين مثلاً باطلاً لا ينبغي لمن يناقش فى قراءات القرآن أن يذكرها، لأن أهل القرآن لا يعدونها من قراءاته. فنسبة ماجاء به من أمثلة تُقبَل مناقشتها ١٧٪ من كل الأمثلة ونحو ٧٨٪ من الأمثلة التى ذكرها لا يجوز له منهجياً أن يدخلها فى المناقشة، لأنه فى مثل مانحن بصده لا يحق للناقد أن ينتقد أو يناقش إلا ما اعترف المنقود بنسبته. أما ما لم يعترف به/ فإن نسبته إلى المنقود تقول باطل، ومناقشته فيه عبث لا معنى له. وعلى كل حال فإن هذه الإحصائية تعطينا مؤشراً قوياً أن هذا الباحث مدّع متكلف وليس من أهل العلم .

والآن فإن جولد تسيهر إن كان لا يعلم أن تلك الأمثلة ليست من القراءات التى اعتمد المسلمون قرآنياتها وهى العشر فمعنى هذا أنه لا يحيط علماً بالموضوع الذى تعرض للكلام والادعاء على المسلمين فيه - أى أنه دعى^٢ فى العلم جاهل به أو ببعض جوانبه. وفى هذه الحالة كان أدب البحث العلمى والمناقشة العلمية يتطلب منه إما أن يدرس الموضوع دراسة جيدة وشاملة أولاً، وإما أن يصمت فلا يهرف بما لا يعرف .

لكن لدينا ما يدل على أنه كان يعلم أن هذه الأمثلة القرآنية التى اختارها ليست مما قبلته الأمة واعتمدته أخذاً من التلقى الشفاهى عن الرسول ﷺ مع مطابقة ذلك لما كتب بين يديه ﷺ، وذلك فى الجمع البكرى ثم المصاحف العثمانية، لأن جولد تسيهر أخذ يحاول خلق سند قوى للقراءات التى تاجر بها فقال (ص ٥٦) «وأكثر القراءات المخالفة التى ذكرناها فى ماسبق، قد أسندت إلى أرفع من يؤخذ عنهم مكانة من القبول فى القرن الأول: إلى ابن عباس، وعائشة، وعثمان - مبتكر الإشراف على كتابة القرآن، وابنه أبان، وإلى ثقات معترف بهم من مرتبة عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب...» ونحن أعلم بجلال قدر كل هؤلاء، لكن هناك فرقاً بين من يعلم أموراً عن القرآن أو عن آيات منه وبين من يتلقى عنه القرآن،

فأما السيدة عائشة رضى الله عنها كانت راوية جلييلة لكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، لكنها لم تأت فى سند أى من القراءات المعتمدة، ولا جاء أبان بن عثمان. وابن عباس رضى الله عنها ليس من الذين عرضوا القرآن على النبى ﷺ مباشرة، وأبى بن كعب رضى الله عنه قال عنه عمر رضى الله عنه ما جاء فى صحيح البخارى «أقرؤنا أبى، وأقضانا على، وإنا لنَدَعُ من قول أبى» (وفى رواية: من لحن أبى). وذاك أن أبياً يقول: لا أدعُ شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى «مانسَخٌ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها».

وفى رواية بخارية أخرى لصدر العبارة الأخيرة «وأبى يقول أخذته من رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيء»، وقد قال الله (١)... إلخ فمع تزكية عمر لأبى فى القرآن، أشار إلى أنه يتمسك بما نُسخ من القرآن (والتمسك بقراءة ما نُسخ خطأ يجعل إخضاع قراءة أبى للمراجعة حقاً من حقوق القرآن وحقوق الأمة). وهذا الذى حكاه عمر من قول أبى، قال مثله عبد الله بن مسعود، والرد عليه هو نفس رد عمر بما شرحناه به. وعثمان رضى الله عنه لم يؤثر عنه فى هذا الأمر إلا ما روى من زيادته عبارة «ويستعينون بالله على ما أصابهم» فى الآية ١٠٤ من سورة آل عمران. وهذه الزيادة - إن صحت الرواية بها - زيادة تفسيرية قطعاً لبيان ما ينبغى أن يتوقعه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وبذلك كله يتبين أنه لا أثر لإستاد جولد تسيهر تلك (القراءات) غير المعترف بها إلى تلك الأسماء، وأنه كان مبطلاً يخادع بأمر باطلة.

(١) ينظر «صحيح البخارى مع كشف المشكل للإمام ابن الجوزى» محمد. مصطفى الذهبى

ج ٣ كتاب التفسير رقم ٤٤٨١، وكتاب فضائل القرآن رقم ٥٠٠٥. وفى كتاب

المصاحف لابن أبى داود ص ٤١ عن عمر أيضاً «إنا لترغب عن كثير من لحن أبى»

وفسر ابن أبى داود كلمة لحن هنا باللغة.

الفصل الثاني

ردود وإيضاحات فى مسائل مهمة

١ - نشأة اختلاف القراءات القرآنية :

ترجع نشأة اختلافات القراءات إجمالاً إلى مصدرين اثنين لا ثالث لهما : أولهما التيسير الذى جاء به حديث الأحرف السبعة، ثانيهما اللهجات العربية أعنى قراءة العرب القرآن بلهجاتهم. وما ألحق بالقراءة اللهجية من الأمور الناشئة عن سنن العرب فى كلامها. ويتطلب الأمر الآن بيان حقيقة المصدرين وما يرجع إلى كل منهما من الاختلافات، ومدى سعته وتأثيره فى وحدة النص القرآنى الكريم .

□ وتفصيل ذلك بالنسبة للمصدر الأول أن القراءات القرآنية نشأت فى عهد رسول الله ﷺ نفسه حين كان القرآن مازال ينزل عليه ﷺ. فكان ﷺ يأمر بكتابة ما أنزل عليه فور نزوله، ثم يقرئ من حضره ومن يحضره بعد ذلك الجديد الذى أنزل ليستظهروه ثم إنه ﷺ لما كثر ما أنزل من القرآن الكريم وتوالى، رقّ لما يلقاه عامة أمته من مشقة فى حفظ ما ينزل كما أنزل، لكثرت مع ضرورة بعضه لكل مُصلٍّ، ثم لأمّيتهم من ناحية ثانية، ثم لما تقتضيه سن بعضهم (الشيخ والعجوز) أو طبيعة عمله (كالخادم والمملوك) من ناحية ثالثة، ولاشتغال جمهورهم بضرورات الحياة والمشاركة فى الجهاد من ناحية رابعة = فضرع إلى ربه أن يخفف عن أمته فاستجاب الله عز وجل بأن يشر قراءة القرآن على سبعة أحرف. فكان النبى ﷺ يأمر بكتابة ما أنزل عليه فور نزوله - كما أنزل، ويُسَمع المسلمين من حضره ومن بعد عنه (بصور الإسماع التى فصلناها) ما أنزل عليه كما أنزل.

ثم إنه ﷺ بعد الاطمئنان على إبلاغ ما أنزل كما أنزل - إسماعاً، وتسجيله خطأ - كان ييسر على من يتلقى عنه من المسلمين بعد ذلك حسب حال المتلقى فيقرئه ﷺ أو يجيز له القراءة بما يستطيع فى حدود إحلال كلمة مكان أخرى من نفس العبارة لها نفس المعنى أو قريب منه. ومن

هذا التيسير وجدت في قراءة بعضهم كلمات تخالف ما في قراءة آخرين - مع تماثل المعنى - فإذا درسنا نحن مدى هذه المخالفة خطياً وجدنا أن بعضها يخالف الكلمات الأصلية إما مخالفة هجائية كلية لا يتحملها رسم واحد كقراءة «مَضَوْا فيه» مقابل «مَشَوْا» وقراءة «صراط من أنعمت عليهم» مقابل «صراط الذين أنعمت عليهم» أو جزئية كقراءة «وأوصى» مقابل «ووصى»، وإما مخالفة يتحملها رسم واحد مثل «فَتَبَّيَّنُوا» «فَتَشَبَّهُوا»، «وكتبه» «وكتبه».

وقد حدث أكثر من مرة أن نقد بعض منهم قراءة بعض بسبب الاختلاف في كلمات، وترافعوا إلى النبي ﷺ فأجاز قراءة كل (١). وبذا استمر اختلاف القراءة في مثل ما سبق.

وأرى أنه يمكن - بشئ من التسامح - تمييز الاختلافات القرآنية الراجعة إلى هذا المصدر بأنها «حروف» في حين يتميز النوع اللهجي بأنه أدائي.

وأساس هذا التمييز أن الاختلاف في هذا النوع الأول هو اختلاف في «كلمات» كما قلنا، والكلمة تسمى «حرفاً» أى أن أحد المعانى التى استعملت فيها كلمة «الحرف» في عصر نزول القرآن هو «الكلمة». وهو معنى ثابت ومشهور وله شواهد بالغة الكثرة. (٢) والمقصود تطبيقاً بكلمة «الحرف» هنا هو ما يصدق عليه أنه كلمة مخالفة لأخرى مثل «مشوا فيه»، «مروا فيه» و«بُشِرَ» «نُشِرَ»، و«حامية» و«حمئة» «وكتبه»، «وكتابه» وما إلى هذا. أما الاختلاف في قراءة كلمة مامرة بالإمالة وأخرى بالنصب، أو بالهمز وأخرى بالتسهيل، أو بالخطاب وأخرى بالغيبة، وما إلى ذلك مما نعهده نحن أدائياً أو ملحقاً بالأدائي = فليس من الحروف، وإنما هو من النوع اللهجي الذى ذكرناه.

(١) ينظر - مثلاً - تفسير الطبرى (تد الشيخ شاکر) ١/٢١١/٤٧ -

وكذلك المرشد الوجيز لأبي شامة (تد طيار آلتي قولاج) ٧٧-٨٨ -

(٢) ينظر لسان العرب حرف. وكتاب حديث الأعراف السبعة د. محمد حسن جبل ص

□ ولفظ «حرف» بهذا المعنى هو الذى جاء فى حديث مولانا رسول الله ﷺ الخاص بالأحرف السبعة وهو قوله ﷺ «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منها»^(١) وجاء هذا اللفظ كذلك عنه ﷺ فى أحاديث أخرى فى هذا الموضوع نفسه مثل «أقرأنى جبريل على حرف»، «قال (أى أحد الملكين) على حرف»^(٢).

كذلك هذا اللفظ هو الذى استعمله الصحابة الذين اختلفوا فى القراءة وترافعوا إلى النبى ﷺ. فاستعمله عمر بن الخطاب بقوله «فاستمعت إلى قراءته (يعنى قراءة هشام بن حكيم سورة الفرقان) فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ» وكرر عمر استعمال اللفظ فى عرضه الأمر على رسول الله ﷺ^(٣). واستعمله عبد الله بن مسعود فى قوله «من قرأ على شئ من هذه الحروف فلا يدعنه رغبة عنه»^(٤).

□ ثم صار هذا اللفظ مصطلحاً يقصد به فى الأعم الأغلب هذا النوع من الاختلاف فى الكلمات. فنجد ابن الجزرى يقول فى ترجمة كل من الإمامين أبى بكر وعمر وكذلك أنس رضى الله عنهم «وردت الرواية عنه فى حروف القرآن»^(٥) ويقول عن ابن عباس رضى الله عنهما «وكان يقرأ

(١) الحديث فى تفسير الطبرى (شاكراً) ٢٤/١-٢٥ برقم ١٥ وهو كذلك فى رقم ١٠، ١٧،

(٢) «أقرأنى جبريل على حرف» فى تفسير الطبرى ١٩ برقم ١٩، ٢٢، ٢٤، بصياغة

مختلفة قليلاً. وقول الملك «على حرف» فيه برقم ٢١، ٢٦، ٢٩.

(٣) السابق نفسه برقم ١٥.

(٤) نفسه برقم ١٨.

(٥) غاية النهاية ٤٣١/١، ٥٩١، ١٧٢ على التوالى.

القرآن على قراءة زيد بن ثابت إلا ثمانية عشر حرفاً أخذها من قراءة ابن مسعود^(١) وفى ترجمة كل من معاوية، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم يقول «وردت عنه الرواية فى حروف القرآن»^(٢) وأما فى ترجمة عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فيزيد بيان موضع القراءة - وهو من الحالات النادرة أو القليلة التى استعمل فيها لفظ حرف غير مقصود به كلمة مختلفة - قال «وردت الرواية عنه فى حروف من القرآن منها مارواه عطية العوفى عنه قال قرأت على عبد الله بن عمر ﴿اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ (الروم ٥٤) نصب كلهن (يعنى بفتح ضاد كلمة ضعف المكررة ثلاثاً فى الآية) فقال لى ابن عمر «ضعف» (يعنى بالضم) وقال قرأت على النبى ﷺ «من ضعف» (أى بفتح الضاد) فقال «من ضعف» يابنى. (أى بضم الضاد)^(٣) والشاهد هنا أن ابن الجزرى ذكر هذا تمثيلاً للحروف فى حين أن هذا يعد من الملحق بالاختلاف اللهجى الأدائى حسب الضابط الذى أسلفناه .

□ ونعود فنقول أنه عندما جمع القرآن فى مصحف فى عهد أبى بكر التزموا أن يكون المثبت فى ذلك المصحف هو (أ) ماتلقاه صحابى عن النبى ﷺ قراءة أو إجازة (ب) مع كونه كتب بين يدى النبى ﷺ (أى بإملائه) (ج) وشهد شاهدان على ذلك. وبذلك ترك (أى لم يسجل) كل مالم تتحقق فيه هذه الشروط مما كانت أجيّزت القراءة به ولا يحتمله رسم المتلقى وهو المخالف مخالفة كلية أو جزئية حسب ما مثلنا سابقاً، لكن لم يصدر أمر من الخليفة (أبى بكر رضى الله عنه) بالالتزام بما فى هذا

(١) نفسه ٤٢٦/١ .

(٢) نفسه ٤٣٩/١، ٣٠١، ٣٠٣/٢ على التوالى .

(٣) ينظر غاية النهاية ٤٣٧/١، والمحزر الوجيز لابن عطية (قطر) ٤٧٥/١ وذكر المحقق

المصحف الذى كتب، لأن هدف هذه الكتابة كان مجرد حفظ النص من الضياع بسبب كثرة استشهاد القُرَّاء فى المعارك، ولذلك لم يعمم هذا المصحف أى لم تكتب منه نسخ وترسل إلى الأمصار الإسلامية. ولذلك بقيت - على الألسنة كل الأحرف التى أجزت القراءة بها -

وفى عهد أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه كُتِبَت عدة نسخ من المصحف وتولت ذلك لجنة جديدة وعارض (= طابق) عثمان (وهو من أقوى المتمكنين فى قراءة القرآن تلقياً عن النبى ﷺ) بين مصحف أبى بكر وبين النسخ الجديدة فوجدوها متطابقة، لكن تعددها سمح بمزيد من الحروف والقراءات الصحيحة السند بأن تكتب فى نسخة - مثلاً - «ووصى» وفى أخرى «وأوصى» أو فى نسخة «وما عملت» وفى أخرى «وما عملته» فأقرها وأرسلت نسخة إلى كل مصر، وأرسل معها قارئ تلقى القرآن مشافهة ليعضبط القراءة على ما تلقى وذلك لئلا يلتزموا بالقراءة بهذه النسخة (الرسمية) وصدر أمر بعدم القراءة بما يخالف ما فى تلك النسخة (الرسمية)، وجمعت أكثر المصاحف الخاصة وحرقت .

□ وكان المفروض (نظرياً) أن ينتهى أمر تلك الحروف المخالفة للمصاحف العثمانية. ولكن الواقع أنه بقيت منها أنواع (أ) نوع كان متلقى عن النبى ﷺ أو مُجازاً (أى مُقرّاً) منه ﷺ ضمن الأحرف السبعة، ولكن الرسم لم يسمح به، ولم يفرق فى المصاحف فبقى شفوياً أو فى مصاحف خاصة. كتبها بعض الصحابة لأنفسهم بعد وفاة النبى ﷺ - وتناقل هذا النوع الرواة لكنه لم يُعتمد بسبب مخالفته المصاحف العثمانية. (ب) ونوع تخلف سنده عن المستوى الملتزم ثم سجلته بعض كتب التفسير وكتب القراءات. وهذا النوع فى داخله مستويات كثيرة بعضها قريب عُدَّ

شاذاً لعدم استيفائه معايير السند عند الإمام الجامع للقراءات، أو لمخالفته الرسم العثماني مع صلاح سنده، ومن هذا القراءات الأربع الزائدة على العشر، ومنه ما هو دون ذلك كالذى جمعه ابن خالويه والكرمانى وغيرهما. ولكن هناك نوع ليس له سند نصى متصل إلى رسول الله ﷺ كقراءة البعض - من عند أنفسهم - بما هو مرادف، وأبعد من هذا وأوغل في كونه منكراً ما كان اجتهداً في قراءة خط المصحف بإعجام يخترعه صاحبه .

والخلاصة أنه أصبح لدينا من هذه الحروف نوعان (أ) نوع ثابت السند صحيحه ومتفق مع رسم أحد المصاحف العثمانية وهو المعتمد والمعترف به عند كل المسلمين وحق على الباحث أن يناقش ما يثيره غير المسلمين من مسائل بشأنه مثل «فتثبتوا» مع «فتبينوا» ومثل «وكتابه» مع «وكتبه» ومثل «وأوصى» مع «ووصى» ومثل «وما عملته أيديهم» مع «وما عملت أيديهم» .

(ب) ونوع غير معتمد عند المسلمين لا يعترفون بقراءته. وليس من حق أحد أن يأخذ منه أحكاماً أو مشكلات يناقش بها المسلمين، وهذا النوع كثير منتشر في كتب التفسير والقراءات وغيرها. وهى التى يستمد منها أو يستعين جولد تسيهر وأمثاله من الذين يهاجمون القرآن أو الإسلام - وهم بهذا غير علميين، إذ يناقشون المسلمين فى أمور أو قراءات هى غير ما يؤمنون به، ولا يعتد بها المسلمون قراءات لكتابهم الكريم .

أما بالنسبة للمصدر الثانى أعنى المصدر الثانى من مصادر الاختلاف فى القراءات وهو اللهجات العربية فإن اللهجة هى طريقة خاصة فى استعمال اللغة يتخذها فريق من أهل لغة عامة، وتتمثل خصوصيتها فى طريقة نطق أنواع معينة من الكلمات، وطريقة صياغة أنواع من الكلمات والجمل، وذلك كنطق كلمة بالإمالة مقابل النصب، وصياغة اسم المفعول من باع ونحوها على مبيوع بدلاً من مبيع، وصياغة جملة «ما» النافية دون إعمال «ما». وهكذا.

□ واللهجة شعبة من لغتها، وهى صحيحة طالما احتفظت بنقائها. فلهجات العربية عربية صحيحة، ولها حجية العربية العامة تماماً. ومع ذلك فإن اللهجات تتفاضل - فى داخل هذه الحجية - بالأفصحية المتمثلة فى البيان أى عدم تداخل حروف الكلمات أو تأكلها أو تداخل كلمات الجمل، وفى خفة الكلمات وسلاستها، وفى الدقة بتخصيص اسم لما دق وخفى مقابل عدم ذلك فى اللهجة الأخرى.

□ وقراءة الإنسان بلهجته التى نشأ عليها وصارت سليقة له شبيهة بالأمر الفطرية = هى أمر طبيعى تماماً. ولا سبيل إلى الادعاء بأن الرسول ﷺ كان يُلزم من يدخل الإسلام بأن يقرأ القرآن باللهجة النبى ﷺ القرشية، فهذا الادعاء يعنى أنه كانت هناك مصادمة لما هو كالفطرى فى الإنسان وهو لغته، وأن اللغة كانت إحدى العقبات التى يواجه بها من يدخل الإسلام - وهذا لم يقل به أحد، ولا يقول به. ثم إنه لا دليل عليه، إنه ليس هناك، إذ لا يتأتى أن يوصف من يقرأ «إياك نعبد وإياك نستعين» بكسرون المضارعة أو من يقرأ «الصراط» بالصاد أو بالإشمام، أو يدغم ميم «الرحيم» فى ميم «ملك» «الرحيم ملك يوم الدين» لا يتأتى أن يوصف من يقرأ كذلك بأنه يقرأ كلاماً آخر، بل هى كلمات الفاتحة نفسها. ولا يقول غير ذلك إلا مكابر.

وصور الاختلاف اللهجية فى العربية كثيرة منتشرة، لكن الإحاطة بها ممكنة وإن لم يكن هنا مجال حصرها. وإنما نريد هنا أن ننوعها نوعين: أحدهما مشهور بأنه لهجى ذكرته كتب القراءات وكتب التفسير عازية بعضه إلى أصحابه أعنى إلى القبائل أو المناطق التى استعمل فيها، وتاركة بعضاً بلا عزو. ومن هذا المشهور صور تخفيف الهمز، والإمالة، وإشمام الحروف والحركات، والإدغام مقابل الفك، والاختلاف فى ضبط بعض حروف البنية بين حركة وأخرى أو بين التحريك والإسكان، وحركة عين المضارع لبعض الأفعال... وهناك اختلافات لهجية نحوية كإعراب بعض الكلمات أو بنائها، وإعمال بعض الأدوات (ما، لا، إن...) أو إهمالها، والصرف أو المنع منه... كما أن هناك اختلافات دلالية فى معانى بعض المفردات. والخلاصة أن هذا النوع من الاختلاف لهجى معروف له ذلك ومصرح به.

النوع الآخر لا يعرف بأنه لهجات وإنما يعرف بأنه من سنن العرب فى كلامها بمعنى أن العرب كثيراً ما تستعمله فى كلامها، وإنما خص وتميز بهذا الاسم لأن فيه تجاوزاً لبعض ما تجرى عليه القواعد العامة أو لما يتوقع فى صوغ الكلام صناعة لاسليقة. فهو جار على السليقة العربية بل ناشئ عنها، وهى التى تلحظ ما يجبره ويسدده.

وواضح من هذا أن هذا النوع أقوى عربية مما هو للتحريجة، لأن اللهجة خاصة بقبيلة ما، لا يستعمل غيرها الظاهرة اللهجية الخاصة بها، فى حين أن ما هو من سنن العرب فى كلامها سار وجار فى العربية عامة عند العرب عامة بمعنى أنهم يستعملونه ويقع فى كلامهم بصرف النظر عن قبائلهم ولهجاتهم.

وهذا النوع نبه عليه اللغويون العرب وميزوه بأن جعلوا له حظاً فى مؤلفاتهم.

□ ونعود إلى ما ذكرنا اللهجات وسنن العرب هنا من أجله وهو أمران مهمان:

- الأمر الأول: هو وقوع كل منهما فى قراءة القرآن الكريم:
 □ الأمر الثانى أن الاختلاف فى القراءة بناء على أى منهما لا يعد اختلافاً على الحقيقة.

(أ) أما بالنسبة لوقوع القراءة باللهجة فى القرآن الكريم فقد قلنا من قبل إن القراءة باللهجة أمر طبيعى لا يحتاج إلى سَوِّقِ حُجَجٍ لجوازه، بل مَنَعُهُ فى ذلك العصر الأول - عصر الصحابة والتابعين - هو الذى يحتاج دليلاً، ولو قد كان هناك مَنَعٌ منه فى ذلك العصر الأول لأثار ذلك أصداً بَكَغَثْنَا، وإذ لم يصل إلينا أىُّ صَدَىٍّ يحمل هذا المعنى فلا بد أن ذلك المنع لم يقع. ثم إن علماء المسلمين فى مجال القراءات هذا ذكروا القراءة باللهجات فى معرض جوازها ووقوعها، وإن كان لبعضهم مناجٍ أضيق من المنحى الذى نقصده. فقد فسر عدد كبير من الأئمة الأحرف السبعة التى أُنْزِلَ عليها القرآن حسب قوله ﷺ «إن هذا القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف» بأنها لغات أى لهجات (١). وهذا يفتح الباب لمشروعية القراءة باللهجات. ولكن جاء بها صريحة أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ). فقال «فكان من تيسيره

(١) من قال بذلك أبو عبيد (٢٢٤هـ) - وذكر فى ذلك آثاراً عن ابن مسعود، وعثمان، وابن عباس رضى الله عنهم. وكذلك أبوحاتم السجستاني (٢٥٥هـ) (ينظر المرشد الوجيز لأبى شامة (تح طيار آلتى قولاج) ٩١-٩٧. وقال به ابن قتيبة (ينظر تأويل مشكل القرآن له/ تح السيد أحمد صقر - ٣٤)، والطبرى (٣١٠هـ)، (ينظر تفسيره - تح شاكر - ٤٦/١ - ٤٧) والباقلانى (٤٠٣هـ) وابن عطية (٥٤١هـ) (ينظر المحرر الوجيز - قطر - ٣٨/١ - ٤٦) وغيرهم.

عز وجل أن أمر رسوله ﷺ بأن يُقَرَّئَ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم. فالهذليُّ يقرأ «عَتَّى حِينَ» يريد «حَتَّى حِينَ» لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها. والأسديُّ يقرأ تَعْلَمُونَ وتَعْلَمَ و«تَسُوْدُ وجوه» و«أَلَمْ إَعْهَدْ إِلَيْكُمْ» (أى بكسر حرف المضارعة) والتميمى يهمز والقريشى لا يهمز، والآخر يقرأ «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ»، «وغيض الماء» بإشمام الضم مع الكسر، و«هَذِهِ بِمُضَاعَتِنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا» بإشمام الكسر مع الضم، و«مَالِكٌ لَا تَأْمَنُ» بإشمام الضم، وهذا ما لا يطوع به كل لسان. ولو أن كل فريق من هؤلاء أَمَرَ أَنْ يزول عن لغته (لهجته) وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المِحْنَةُ فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل للسان وقطع للعادة. فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً فى اللغات، ومُتَصَرِّفاً فى الحركات^(١). وقد نقل أبوشامة (٦٦٥هـ) إباحة القراءة باللهاجات، واستحسن ذلك وأضاف من أمثلتها الإمالة، والإدغام، وضم ميم الجمع، وصلة هاء الكناية، والإشمام فى نطق بعض الصوامت، ونطق الكاف كالجيم والجيم كالكاف...^(٢)

ويؤكد هذا أيضاً - أعنى كون هذه الأمور المذكورة فى الأصل لهجات وقُرِّئَ بها - ما سجلته كتب التفسير والقراءات من عَزَوِّها إلى لهجات قبائل عربية^(٣).

ب) وأما بالنسبة لوقوع «سنن العرب فى كلامها» فى القرآن الكريم فهذا فى القرآن بالغ السعة، والانتشار، وربما يكفى للتدليل على ذلك أن أبا منصور الشعالبي عقد فى كتابه «فقه اللغة وسر العربية» نحو ستة وثمانين فصلاً لهذه السنن^(٤) لكل منها مثال أو أمثلة من

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن ٣٩.

(٢) ينظر المرشد الوجيز ص ٩٥، ٩٧.

(٣) كتب التفسير حافلة بذلك العزْو - ينظر الكشف للزمخشري.

(٤) هى الأبواب من رقم ١ حتى رقم ٤١ (ص ٣٠٢ - ٣٢٣) ثم الأبواب رقم ٥٣ حتى

٦٠ (ص ٣٣٢ - ٣٤٠) ثم رقم ٦٣ حتى ٩٩ (٣٤٣ - ٣٦٥).

القرآن الكريم وقد أخذها الثعالبي عن سابقين كابن قتيبة وابن فارس^(١) وغيرهما. ولها جذور في كتاب سيبويه.

□ وقد قلنا من قبل إن هذه السنن أساليب عربية صحيحة تماماً، ولكنها تميزت بأن فيها شيئاً من التجاوز عن الضوابط الصناعية التي استنبطها العلماء من جمهور كلام العرب في صورته الأساسية، ولم يبسطوها على المستويات الرفيعة والاستثنائية التي تتميز بهذه السنن، اتكاء على معطيات السليقة الحساسة التي تلحظ بالفطرة ما تجاوزته الصياغة حسب تلك المستويات. ومن الأمثلة القريبة ما عنون له الثعالبي بقوله «فصل في ذكر المكان والمراد به من فيه» كقوله تعالى «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» (يوسف ٨٢) أي أهلها. ويقول «فصل في مآظاهرة أمر وباطنه زجر» كقوله تعالى: «فَاعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»^(٢).

ثانياً: بالنسبة لعدم اعتداد الاختلافات اللهجية، وكذا ما جرى على سنن العرب - عدم اعتدادها باختلافات على الحقيقة = فهذا أمر كأنه بالغ الوضوح بالنسبة للقراء باللهجات لأن كل اللهجات العربية الصحيحة حجة كما قلنا، ولأن الاختلاف هنا اختلاف أدائي فحسب. وقد خلقنا الله وزودنا بالقدرة على الكلام لتفاهم هكذا حسب أدائنا المختلف - على ما قلنا إن نطق الإنسان الكلام بلهجته هو الأصل وهو الطبيعي، وإن مخالفة ذلك هي التي تحتاج شروطاً وتسويغات. فالكلمة تظل هي الكلمة مادامت حروفها بترتيبها وضبط بنيتها هي هي. فالكلمة

(١) ابن فارس في كتابه «الصاحبي» من ص ٣٢١ باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز» إلى آخر الكتاب مع تخلصها بما ليس منها، وابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص ١٠٣ - ٢٩٨ ثم ٥٦٥ - ٥٧٨.

(٢) ينظر في المظنين فقه اللغة للثعالبي ٣٠٥.

«نِسْتَعِين» بكسر نون المضارعة هي عين كلمة «نَسْتَعِين» بفتحها. وكذلك كل ما الاختلاف فيه يرجع إلى اللهجة، فكل هذا لا يُعَدُّ اختلافاً حقيقياً ولا يُنْتَظَرُ إليه إطلاقاً عند الكلام عن وحدة النص. وكل كلام غير هذا هو مكابرة يستطرد إلى إلغاء وظيفة اللغة نفسها، لأن من مُقَرَّرَات الدراسة الصوتية الحديثة أن نطق كلمة بعينها من شخص ما يختلف صوتياً عن نطق الشخص نفسه للكلمة نفسها مرة أخرى. ومعنى الاختلاف الصوتي أن تحليل نطق الكلمة بالأجهزة الصوتية الحساسة تكون فيه فروق بين نطق وآخر للشخص نفسه في عدد ذبذبات صوت الكلمة وما إلى ذلك. فالمكابرة في هذا يجر إلى نتائج تُضَادُّ ما يجري عليه أمر البشر على هذه الأرض.

□ والأمر كذلك أو قريب منه عند الكلام عن الاختلاف الذي تكشف الدراسة أن مرده هو سنن العرب في كلامها. وقد أشار جولد تسيهر إلى شريحة من ذلك بقوله «وكثير عدد القراءات التي يدور اختلافها حول هذا الرسم (د) هل يحلى بتقطتين من أعلى أو من أسفل فهو على الأول تاء فوقية لخطاب المذكر، وعلى الثاني ياء تحتية للغائب المذكر» وواضح أنه يقصد حرف المضارعة في مثل «يعملون» و«تعملون» ونحن نعلم أن مرجع الصورة الأخيرة أي المستقرة من هذا هو الرواية، لكن الأساس الذي صيغ الكلام عليه في رأس سلسلة الرواية هو عروبة كلِّ حسب ما أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين. فالصياغة بالتاء لخطاب المذكر ترجع إلى كون الفعل مسنداً للمخاطب المذكر أصالة أو التفاتاً أو حملاً على المعنى. وكذلك الصياغة بالياء هي للغائب المذكر أصالة أو التفاتاً أو حملاً على المعنى. ولنضرب أمثلة سريعة. فالأصل لا كلام فيه. ولم يقرأ أحد على الإطلاق الأفعال في قوله تعالى: «الذين يؤمنون بالغيب

ويقيمون الصلاة وما رزقناهم يُنْفِقُونَ» (البقرة ٣) بالتاء، لأن ذلك خلاف الأصل هنا ولا يتأتى هنا التفتات ولا حمل على المعنى. ومن أمثلة الالتفات قوله تعالى: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» (البقرة ٧٤) فالآية بدأت بالخطاب الموجه لبنى إسرائيل أى أن خطاب المذَكَّرِينَ هنا هو الأصل القريب. وعليه جاء ختام الآية نفسها «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». ولكن المقام هنا يسمح بالالتفات عنهم رجوعاً إلى كونهم غائبين غير مخاطبين، فقرئت «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»^(١). وفى مَثَل للحمل على المعنى قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْراً مَرْتين» (الأحزاب ٣١) قرئ «ويعمل صالحاً» مراعاة للغيبة التى هى مقتضى «مَنْ» هنا. وقرئ «وتعمل» بالتاء مراعاة للمعنى أى لما استعملت فيه «مَنْ» هنا وهو المؤنث. وقرئ «يؤتها» بالياء يعود الضمير على لفظ الجلالة المفرد المعبر هنا عن لا يراه الخلق فى الدنيا سبحانه وتعالى. وقرئ «نؤتها» بالنون بالالتفات من الغيبة إلى المتكلم المعظم نفسه سبحانه وتعالى»^(٢) وكما هو واضح فالأمر فيه تشعب. أى ليس مقصوداً على مخاطب مذكر أو غائب مذكر.

□ وهنا سؤالان: الأول من جاء بهذا أو هذا أول الأمر؟ والإجابة هو الله سبحانه الذى أوحى إلى رسوله ﷺ قرآنًا عربياً يجرى فيه هذا وهذا، وحملته الرواية الصحيحة عنه ﷺ إلى القراء العشرة المعتمدين.

(١) قرأ بالياء ابن كثير من السبعة. وافقه ابن محيصن من الأربعة. وقرأ الباقر بالتاء (المصحف الميسر).

(٢) قرأ «ويعمل صالحاً يؤتها» بالياء فيهما حمزة والكسائي من السبعة، وخلف من الثلاثة، وافقهم الأعمش من الأربعة من الأربعة. وقرأهما الباقر بالتاء (المصحف الميسر).

الثانى هل مازالت القراءة باللهجات وسنن العرب متاحة إلى الآن؛ والإجابة: كلاً. فقد كانت اللهجات متاحة في الصدر الأول حسب ما ذكرنا قَبْلاً، حتى آل الأمر إلى الرواة المتخصصين فضبطوا القراءة بالسند المتصل برسول الله ﷺ بالتلقى، وأصبح القارئ يقرأ كما تلقى حتى لو خالف لهجته، لأن الأمر تجاوز السليقة إلى الصناعة فأل بذلك إلى القدرات الخاصة. فلا يجوز الآن أن يقرأ أحد بلهجته إلا إذا كان أمياً وتعذرت عليه القراءة بالأداء المروى .

(خلاصة عن نشأة القراءات وأنواعها إلى العشر المعتمدة)

يتضح مما سبق أن القراءة أُخِذَتْ بالتلقى عن النبي ﷺ ثم نشأ اختلاف القراءات عن :

- (١) اختلاف الأداء وهذا اختلاف لهجى بحت .
- (٢) الأخذ بسنن العرب في كلامها - مثل «يعملون» و«تعملون» وهذا ملحق باللهجى .
- (٣) الاختلاف الناشئ عن تيسير القراءة بالأحرف السبعة. وهذا التيسير كان يشمل :

- (أ) القراءة بالمرادف مثل «مَرُّوا فِيهِ» مقابل «مَشَوْا فِيهِ» .
- (ب) القراءة بما نسميه الشبيه بالمرادف من مثل «وَوَصَّى» و«وَأَوْصَى» ، «وَكُتِبَ» و«كِتَابَهُ» .

٤ - القراءة بالمرادف لم تُسَجَّلْ خطياً في الكتابة بين يدي النبي ﷺ ولا في الجمع البكرى فانهصر مجال بقائها على الألسنة رواية .

٥ - أ - بعض القراءة بماسميناه الشبيه بالمرادف - وهو الذى يختلف رسمه مثل «وأوصى» و«ووصى» ومثل «وما عملت أيديهم» و«وما عملته أيديهم» لم يُسَجَّلْ في الكتابة بين يدي النبي ﷺ ولا في الجمع البكرى

بمعنى أنه كتب منه وجه واحد فقط ولم يكتب مرتين. فما ترك منه ظل جارباً على الألسنة فقط.

ب - أما البعض الآخر من هذا النوع - وهو القراءة التي يقبلها الرسم مثل «وكتبه» «وكتابه» فإنه ظل باقياً في القراءة - إذا صحت به الرواية.

٦ - سمح تعدد المصاحف العثمانية بدخول بعض ما يختلف رسمه (من مثل (أ) فى رقم ٥) - ضمن القراءات المتفقة مع الرسم العثمانى أو التى يحتملها الرسم العثمانى بشرط صحة الرواية به .

٧ - تُنَوِّقَت القراءاتُ الناشئة عن كل هذا: اللهجية، والملحقة بها، والتى سُبِّجَتْ فى الكَتَبَاتِ الثلاث، والتى سمح بها رسم المصاحف العثمانية، والمرادف ومالم يسمح به الرسم العثمانى - من طبقة الصحابة إلى طبقة من التابعين وتابعى التابعين. وقد انقطع بعضهم لقراءة القرآن حتى صاروا أئمة حرص كل منهم أن تكون قراءته متصلة السند بالرواية الصحيحة إلى الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ وعرضوا عليه ﷺ قراءتهم توثيقاً وتحقيقاً لما تلقوه .

٨ - ثم برز أئمة آخرون خبراء فى قراءات القرآن وفى أسنادها، فجعلوا يدرسون قراءات قُرَاءِ التابعين وتابعى التابعين من حيث صحة سندها إلى رسول الله ﷺ، وقوة هذا السند أو ضعفه، ثم من حيث اتفاق هذه القراءات مع رسم المصاحف العثمانية أو أحدها، وأخذ كل من هؤلاء الأئمة الخبراء (وأولهم أبو عبيد القاسم بن سلام ٦٢٢٤هـ) يركى قراءات أئمة من أولئك التابعين وتابعى التابعين - بناء على المعايير التى ذكرناها آنفاً - ويُعَرِّضُ عمن سواهم .

وأهم ما أعرضوا عنه (أ) ما خالف رسم المصاحف العثمانية أى مالم يتفق مع رسم أى منها - وبذا استبعدت القراءة بالمرادف، وكثير من القراءات التى سمينها شبيهة بالمرادف - وهى مالم يثبت فى المصاحف العثمانية، (ب) ما ضعف سنده، أى لم تستوفِ الرواية به درجة الصحة

والقوة التي التزموها . ومما أعرضوا عنه ضمن ماضعف سنده تلك القراءات
اللهجية والسنية الستى لم يرتفع سندها إلى قدوة صحيحة من
الصحابة أو التابعين .

وظلت سلسلة تزكية القراءات من خلال جهابذة فى القراءات بناء على
المعايير المذكورة حتى بلغ الأمر إلى أبى بكر بن مجاهد (المتوفى ٣٢٤هـ)
فاستصفى من كل ذلك سبع قراءات لسبعة أئمة ، وألقى الله عز وجل على
اختياره هذا قبولاً من الأمة فاعتمدت قراءات السبعة الذين زكى قراءاتهم ،
ثم اجتهد آخرون فاستصفوا ثلاث قراءات لثلاثة أئمة آخرين ، فصارت عدة
القراءات المعتمدة عشراً ، هى التى بين أيدينا الآن .

(ب) الحجم الحقيقي لاختلاف القراءات بوحدة النص الكريم:

أخيراً يمكن الآن أن نرّد على جولد تسيهر في زعمه الذي رددّه بلجاجة وإلحاح وهو أن النص الكريم يفتقد الوحدة وبعبارة « ليس هناك نص موحد للقرآن الكريم ».

وقد عرفنا أنه اعتمد في مقولته هذه على (اختلاف) القراءات، إذ إنه لم يَسُقْ أى دليل لمقولته سوى تلك القراءات المختلفة في نحو سبع وأربعين كلمة. فهو يعنى اختلاف ألفاظ النص .

واختلاف ألفاظ النص اختلافاً يؤدي إلى فقدّه الوحدة لا يكون إلا بشرط أوّلٍ هو أن يكون ذلك الاختلاف من النوع الحقيقي لا الشكلي. ونعنى بالشملي ذلك الاختلاف اللهجي في أداء الكلمات لافى الكلمات نفسها. وهذا أمر لا يستطيع أن يجادل فيه أحد، بمعنى أن أحداً لا يستطيع أن يقول إن كلمة في النص تغيرت لمجرد أنها نطقت بإمالة ألفها، أو بتسهيل همزتها، أو بإشمام يائها ضمة، أو بالوقف على تائها المربوطة بالتاء بدلاً من الوقف بالهاء، أو بتغيير حركة بنيتها مع بقاء معناها - مثل «ضَعَف» بفتح الضاد أو ضمها، وكذلك ماأساسه سنن العرب في كلامها مثل يعملون وتعملون إلخ تلك الاختلافات اللهجية والملحقة بها، لا تمس المعنى أدنى مساس. واللغة ألفاظ ذات معان فكيفما نُطِق اللفظ فإنه يُعَدُّ هو هو مادام قد احتفظ بمعناه. وقد أشرنا إلى هذا من قبل أكثر من مرة.

ثم إذا تحقّق ذلك الشرط الأوّل بأن كان الاختلاف في الكلمات حقيقياً لأدائياً شكلياً فإن ذلك الاختلاف لا يؤدي إلى فقد النص الوحدة إلا إذا تحققت إحدى حالتين :

(أ) أن يكون ذلك الاختلاف فاحش الانتشار في النص بحيث تبلغ الكلمات المختلفة منه نسبة كبيرة .

(ب) أو تكون الكلمات المختلفة تتركز أو تتناول المقررات الأساسية للنص، فإنها في هذه الحالة تؤدي إلى افتقاد النص الوحدة ولو كان عددها قليلاً .

ولم أجد أيّاً من الأمرين متحققاً، فلقد أحصيتُ ودَرَسْتُ الكلمات القرآنية المختلفة اختلافاً اعتدته أنا اختلافاً حقيقياً، وإن كنت أومن تماماً أنه أقرب ما يكون إلى الاختلافات الشكلية، لأن فروق المعنى فيه ضئيلة: فهو إما اختلاف في الصيغة مثل «فَأَزَلَّهُمَا - فَأَزَلَّهُمَا» «نَزَلَ/ أُنْزِلَ» «قاسية/ قَسِيَّة» «خَلَقَكَ/ خِلَافَكَ» «المخلصين/ المخلصين» أو في البناء للمعلوم والمجهول «وَسَيَصْلُونَ وَسَيُصَلُّونَ» و«أَحَلَّ وَأُحِلَّ» أو في المفرد والجمع «كُتِبَهِ/ كِتَابَهُ» أو الجمع والجمع «أَسَارَى/ أَسْرَى»^(١). أو ما إلى ذلك، وقد ذكرنا من قبل الاختلاف في حرف المضارعة وقلنا إنه يرجع إلى الأصل أو إلى إحدى سنن العربية كالاتفات والحمل على المعنى.

لقد بلغت الكلمات المختلف فيها في القراءات المعتمدة مثل هذا النوع من الاختلاف نحو خمس وسبعين وثلاث مئة كلمة. في حين أن كلمات القرآن الكريم تبلغ حوالى ثمانية وسبعين ألف كلمة أى بنسبة أقل من نصف في المئة أى كلمة كل مئتي كلمة وهى نسبة غير مؤثرة، وبخاصة مع تقارب الكلمتين المختلفتين في المعنى تقارباً يشبه التطابق. فإذا اقتصرنا من بين ذلك العدد على الكلمات التى يبدو الفرق بينها في المعنى المباشر واسعاً إلى حد ما مثل «يَكْذِبُونَ/ يَكْذِبُونَ» «نُتْسَاهَا/ نَتْسَاهَا» «وَلَا تَقْتُلُوهُمْ/ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ» «الْأَوَّلِينَ/ الْأَوَّلِينَ» «يَقْضُ الْحَقَّ، يَقْضِي الْحَقَّ» «فَرَّقُوا دِينَهُمْ/

(١) الأمثلة هى على التوالي من البقرة ٣٦، ١٣٦، المائدة ١٣، الإسراء ٧٦، يوسف ٢٤،

فَارْقُوا...» «لَا إِيمَانَ لَهُمْ / لَا إِيمَانَ لَهُمْ» «وَلَا أَدْرَاكُمْ / وَلَا أَدْرَاكُمْ» «تَبْلُوْا كُل نَفْسٍ / تَتْلُو...» «مُفْرَطُونَ / مُفْرَطُونَ» «يَفْقَهُونَ / يَفْقَهُونَ» «لَاهَبَ / لِيَهَبَ» «بَلْ عَجِبْتَ / بَلْ عَجِبْتُ» «عِبَادُ الرَّحْمَنِ / عِنْدَ الرَّحْمَنِ» «عَرَفَ بَعْضَهُ / عَرَفَ بَعْضَهُ»^(١).. حوالى أربع عشرة كلمة قد تصل باختلاف وجهات النظر إلى عشرين أو حتى ثلاثين كلمة. فماذا تكون نسبتها إلى كلمات القرآن البالغ عددها نحو ثمانية وسبعين ألفاً أو اثنين وسبعين ألفاً^(٢) باحتساب أن عدد تلك الكلمات الواسعة اختلاف المعنى ثلاثون وأن كلمات القرآن اثنان وسبعون ألفاً تكون النسبة ٠.٤ ر / أى حوالى كلمة واحدة كل ألفين ومئتين كلمة أى كلمة كل عشر صفحات أو تسع كما ذكرنا من قبل. ومع ذلك فإن تلك الكلمات تلتقى فى المعنى ولا تتضاد أبداً كما هو واضح تماماً لمن يدرس. وهكذا، فالنسبة اللفظية لاختلاف الكلمات المقروء بها = لا تكاد تذكر، ومع التقاء معانى تلك الكلمات يصبح القول بافتقار النص الوحدة بناء عليها أمراً مغروراً فى الجزافية والبطلان، يأنف أى باحث علمى جاداً من أن ينسب إليه .

والخلاصة أنه تبين الآن تبييناً علمياً أن كلمة جولد تسيهر «ليس هناك نص موحد للقرآن الكريم» إنما هى نفثة حاقد جهول لا يستحق أن يؤلى احترام أهل البحث العلمى .

(١) الأمثلة على التوالى من البقرة ١٠، ١٠٦، المائة ١٠٧، الأنعام ٥٧، ١٥٩، التوبة ١٢، يونس ١٦، ٣٠، النحل، ٦٢، الكهف ٩٣، مريم ٩، الصافات ١٢، الزخرف ١٩ التحريم ٣ .

(٢) فى الفصل الأخير من النوع التاسع عشر من الإتقان (عالم الكتب ١/ ٧٠)، أن كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) وفى جمال القراءة (تحد على حسين البواب) ١/ ٢٣١ أن كلمات القرآن اثنان وسبعون ألف كلمة

(ج) مغالطة جولد تسيهر

بعد ما بينا حجم الاختلاف فى القراءات، وأنه لا يقدر فى وحدة النص الكريم بأى مستوى من القدر نحى أن نلقت النظر إلى المغالطة التى اقترفها جولد تسيهر ليخدع بها قارئى كتابه. لقد عرفنا أن القرآن كان يُسَجَّلُ خطياً فور نزوله على رسول الله ﷺ كما أنزل، وعرفنا أن جمع القرآن فى عهد أبى بكر التزم تسجيل القرآن مما كُتِبَ بين يدى النبى ﷺ بشهادة شاهدين على صحة قرأته، وعرفنا أنه فى التسجيلين كتبت الكلمة المتنوعة القراءة (مرادف أو شبيهه بالمرادف) مرة واحدة - وبهذا لم يعد للقراءة المخالفة للرسم سند خطى، وانحصر سندها فى الرواية إن كانت. وقد روى هذا نفسه أى رسم الكلمة مرة واحدة تماماً - تقريباً - فى رسم المصاحف العثمانية، حيث لم يختلف رسمها إلا فى كلمات جد قليلة (تسع وثلاثون كلمة^(١)) من كلمات القرآن البالغ عددها أكثر من ثمانية وسبعين ألف كلمة، ويتمثل الاختلاف فيها فى زيادة حرف هجائى أو نقصانه، أو حلول حرف هجائى محل حرف هجائى آخر. ولم يصل الاختلاف إلى كلمة إلا فى موضعين فى الكلمتين: "هُوَ" "مِنْ" فكأن المصاحف العثمانية غير مختلفة على التحقيق. ثم أضيف إلى هذا الالتزام فى الرسم التزام آخر فى الروايات آمن به وأخذ به القراء من التابعين وتابعى التابعين، ثم أخذ به الخبراء والجهابذة الذين اختاروا القراءات وقراءتها، واصطفوا منها السبع ثم الثلاث: وهو أنه لا يُقْبَل ولا يُعْتَمَد من القراءات فى هذه السبع والثلاث المكملتها عشراً إلا ما وافق رسم المصاحف العثمانية. وبذا ارتبطت القراءة بالرسم ارتباطين فقد أخذ الرسم عن القراءة أولاً عند كتابة القرآن بين يدى النبى ﷺ وفى الجمعة البكرية، والنسخ العثمانى، ثم جُعِلَ من

(١) ينظر رسم المصحف غانم قدور الحمد ٦٩٥ - ٧٠٦.

شروط قبول القراءة رواية في مراحل تصفية القراءات - مرافقتها الرسم العثماني. وكانت النتيجة أن انحصر الاختلاف الشكلي في قراءة الكلمات المختلف في قراءاتها، في إعجام حرف من حروفها أو عدم إعجامه، أو في شكله بحركة أو سكون دون حركة، أو في كليهما. فهذه النتيجة هي من ثمرة الضابطين أو الالتزامين اللذين التزم بهما أئمتنا. والدليل الحى الناطق بهذا أنك لا تجد في القراءات العشر المعتمدة ما يخرج فيه الاختلاف بين قراءة وأخرى لكلمة عن الفرق في الإعجام والشكلات - مع التنبيه إلى أن زيادة ألف أو ياء أو واو أو نقص أى منهن هو من اختلاف الشكلات - إلا ما يكون من أمر الكلمات التسع والثلاثين المذكورة آنفاً.

لكن جولد تسيهر قلب الأمر، فاستغل النتيجة التي ذكرناها آنفاً أعنى انحصار الفرق بين قراءات الكلمات المختلف فيها في اختلاف الإعجام والشكل فزعم أن الرسم كان هو أولاً، ثم إن الناس أعجموا وشكلوا حسب أهوائهم أو آرائهم فاختلفت القراءات لذلك. وهي مغالطة خبيثة كما نرى، لأن الكتابة إنما جاءت رموزاً خطية للقراءة الشفوية التي كانت أولاً. ثم ظلت الروايات الشفوية مهيمنة على الرسم - كما فصلنا.

ودليل آخر هو أن القراءات الخارجة عن الضوابط المذكورة، والتي تصيّد منها جولد تسيهر جمهور أمثله - مع أنها غير معتمدة عندنا، ولا ينبغي أن يستشكل علينا بها - هذه القراءات التي تسربت بالرواية إلى كتب التفسير والقراءات كثيرة جداً. ولو كانت القراءات أخذت من قراءة الخط اجتهداً حسب الهوى أو رأى لُقِبَت كلها أو أكثرها، وأيضاً لما انحصر الاختلاف بينها في إعجام وشكل. في حين أنه لم يُقبَل من طوفان القراءات المروية إلا القليل، وأن تلك القراءات التي احتفل بها واستمد منها جولد تسيهر فيها الكثير مما يخالف الرسم مخالفة كلية أو جزئية.

لقد بلغت مواضع القراءات في تفسير البحر المحيط - لأبى حيان - وحده

(٢٦٨٥) (١) موضعاً لو استُدرك ما فاتته فقد يزيد إلى ثلاثة آلاف موضع. ولكي نعرف حجم ذلك فإن سورة الفاتحة فيها ستة مواضع قراءات. ومجموع القراءات في المواضع الست (٥٩) تسع وخمسون (٢). فكأن متوسط ما في كل موضع من القراءات عشر. ومهما هبط هذا المتوسط (إذا نظرنا إلى المواضع في القرآن كله) فلن يهبط عن ست، فيكون ما تضمنه تفسير البحر المحيط وحده حوالى $(2685 \times 6) = 16110$ نحو ستة عشر ألف قراءة. شطر منها مخالف للرسم (الفاتحة وحدها فيه عشر قراءات مخالفة للرسم) وشطر آخر غير مخالف، ولكنه لم يقرأ به في العشر المعتمدة، لأن روايته لم تصل إلى مستوى الوثاقة الذي تطلبه مختار السبع ومختار الثلاث المكمل لل عشر (قلنا إن مجموع القراءات في الفاتحة تسع وخمسون، ونقول الآن إن مجموع ما قبل منها في العشر خمس عشرة قراءة فقط) (٣). ولو كان معيار القراءة هو ما يقبله الرسم من الإعجاز والضبط لقبلت كل تلك القراءات التي لم تخالف الرسم. وهى آلاف. وهذا يهدم مازعمه جولد تسيهر من أن القراءة كانت تؤخذ من الرسم حسب ما يراه إعجابه أو شكله به. فإن رجع واعترف بأنه كانت هناك ضوابط - ترك ما ترك بناءً عليها - رجع إلى قولنا فى ماعدا أنه قلب ما صار نتيجة وهو انحصار الاختلاف بين القراءات فى

(١) هذه الإحصائية أنا جمعتها من كتاب القراءات القرآنية فى البحر المحيط الذى جمعه

أخى الجليل الدكتور / محمد أحمد خاطر، بارك الله جهوده فى خدمة القرآن وتقبلها .

(٢) ينظر المرجع السابق ٣/١ - ٧ .

(٣) هناك قراءتان عشريتان لم تذكرنا ضمن القراءات التى ذكرها البحر المحيط .

الإعجام والشكل فجعله مقدمة أى سبباً لنشأة القراءات، وقد بيّنا ما فى هذا من المغالطة، وأن الذين رسموا المصحف كان همهم تسجيل رموز أصوات الكلمات (أى حروفها) خطياً، وأُصْحِبَت المصاحف العثمانية بقرآنٍ تَضَيُّطُ قراءَةٍ كُلٌّ منهم ذلك النص المكتوب. فكأن هذا المرافق للمصحف يؤدى مهمة الإعجام والشكل. ثم اُنْتُفِعَ بذلك التسجيل للرموز الصوتية فى قبول القراءات التى تتأتى فيه إذا كانت مروية صحيحة واستُبعد ما عداها ولو كان صحيح الرواية. والقراء الذين صحبوا المصاحف هم عبد الله بن السائب مع المصحف المكى، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامى، وأبو عبد الرحمن السلمى مع المصحف الكوفى، وعامر بن عبد قيس مع المصحف البصرى وكان زيد بن ثابت يقرئ الناس بالمدينة. (١)

□ وهنا سؤال يفرض نفسه وهو هل تسببت ضوابط الروايات التى حُدِّثَتْ بناءً عليها القراءات السبع والعشر فى ترك قراءات صحيحة .
والإجابة نعم تُركت قراءات صحيحة استغناء عنها بالقراءات الصحيحة المعتمدة ولم يَضَعْ شَيْءٌ من المعنى .

وقد عالج الإمام الطبرى هذه المسألة على أنها تَرَكُ لسته من الأحرف السبعة اكتفاءً بالحرف الواحد الذى اختاره للمسلمين إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة. ثم استشعر اعتراضاً على القول بترك المسلمين قراءة (قراءات) أَقْرَأَهُمُوهَا رسول الله ﷺ، وأمرهم بقراءتها. وأجاب بأن أمره ﷺ المسلمين بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة.... فكانوا مُخَيَّرِينَ، وكان الواجب عليهم - مع تلك الإباحة والتخيير - أن يراعوا مصلحة الإسلام وأهله، فكان اختيار

حرف واحد هو الذى تتحقق به تلك المصلحة، فى حين كان التمسك بالسته الأخرى أيضاً جناية على الإسلام وأهله. (١)

□ ومقولة الطبرى أن القراءة بالأحرف السبعة كانت رخصة هى مقولة صحيحة تماماً، تشهد لها روايات حديث الأحرف السبعة. وكذا مقولته إن القراءة بالأحرف كانت تخييراً هى صحيحة أيضاً، لأن هذه نتيجة لتلك. وإنما نختلف معه فى قوله إن الذى يُقرأ به الآن هو حرف واحد من الأحرف السبعة، وإن ستة أحرف تُركت. فنحن نقول إنه بقى الحرف الأول أى ما استُصِفَ منه فى العرُضتين الأخيرتين، وبقي معه ما يحتمله رسم مصحف أبى بكر، ثم رسم المصاحف العثمانية من سائر الأحرف الثابتة بالرواية الصحيحة، وتُرك ما عدا ذلك. وأهم ما تُرك وأوله هو القراءة بالمرادف، وهى أحق ما تُرك بالترك، ولذا كان من فضل الله على الأمة، ومن تحقيق وعده بحفظ النص الكريم أن تلك المرادفات لم تُكتب ضمن ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ومن ثم لم تُكتب فى الجمع البكرى، ولا فى النسخ العثمانية. وإنما بقيت على ألسن أصحابها حتى وصلت بالرواية إلى كتب التفسير والقراءات. وقد ذكرنا هذا فى أكثر من موضع.

□ وهذا الذى قررناه فى مسألة نسبة ما فى مصاحفنا وقراءاتنا الآن إلى الأحرف السبعة من أن مصاحفنا وقراءاتنا تشتمل على الحرف الأول الأخير ثم على ما يحتمله رسم المصاحف العثمانية من الأحرف الستة: نسبه ابن الجزرى إلى « جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين » (٢) والحمد لله رب العالمين.

(١) تفسير الطبرى (شاكر) ٦٤/١-٦٥ بتصرف لاستخلاص أصوب ما فى الفكرة.

(٢) ينظر النشر ٣١/١.

د- زعم تزايد القراءات استحداثاً بمرور الزمن

أوهم جولد تسيهر أو توهم - بناء على مافى ذهنه من فكرة مسبقة مما سماه هو وغيره من المستشرقين **تطوراً** وقع فى التوراة والإنجيل - توهم أن عدد القراءات (سبعاً أو عشرة أو أكثر) كان يتزايد باستحداث قراءات جديدة كلما مر زمن. وقد جاء هذا الإيهام فى قوله ص ٥٧ «لا يجوز غض النظر عن أنه فى هذا التحديد (يعنى تحديد ابن مجاهد القراءات السبع) **سرعان ما تجاوز عنصر الحرية حد القراءات السبع**» هو يقصد «بالحرية» ما يزعمه هو من أن تصرف الأفراد فى قراءة النص الكريم بالزيادة أو تغيير النقط أو الشكل كان متاحاً) وفى قوله فى ص ٥٨ «نسمع عن ثمانية أو عشرة من القراء الذين تتالى ظهورهم حتى القرن التاسع الميلادى» وفى ص ٦٠ «لم يبق الناس واقفين فى العصور المتأخرة عند مجاميع القراءات السبع (أو العشر) المعتمدة» ثم استشهد هنا بإحالة القسطلانى (٩٢٣هـ) - فى أثناء شرحه للبخارى - على كتاب له - فى القراءات الأربع عشرة، وفى ص ٧٠ «طرق القراءات الخصيبة النمو». ويستدل لتجاوز حد القراءات السبع هذا بأن المقدسى الجغرافى (محمد بن أحمد - ٣٨٠هـ) تحدث عن ثلاث عشرة قراءة قائلاً إن الكل صحيح فى رأى أكثر الأئمة»، ثم قال إن العدد خُفِّض بعد ذلك إلى سبع، ثم عاد فأوهم أن بعض «رجال الدين البارزين» ربطوا بين حديث الأجر السبعة والقراءات السبع، ولم يرتضوا أن تكون «السبعة» فى الحديث تقصد إلى التحديد بعدد معين (ص ٥٩) (أى أنها تشير إلى الكثرة فقط) «وناضلوا عن مبدأ الحرية المطردة (يعنى فى إنشاء مزيد من القراءات). وذكر من هؤلاء القاضى أبا بكر بن العربى (ت ٤٤٦هـ)، ومكى بن أبى طالب

(ت ٥٤٦هـ) موهماً أنهما كانا يسعيان بذلك إلى مزيد من القراءات. وفي آخر هذه الفقرة من الإيهامات (٥٩-٦٠) يأتي بقول أبي شامة (٦٦٥هـ) إن إجماع أهل العلم على رفض تفسير حديث «الأحرف السبعة» بالقراءات السبع (وهذه الجزئية من أبي شامة صحيحة. ولو كان جولد تسيهر باحثاً علمياً شريفاً لقدمها واكتفى بها ولكنه أخرها لتُغمر بالكلام فيظل اللبس ويزداد حسب ما يريد). ثم عاد إلى ما بدأ به هذه المسألة من إيهاماته وهي **تزايد استحداث قراءات** بمرور الزمن فيذكر أن شهاب الدين القسطلاني (٩٢٣هـ)، كثيراً ما يحيل في شرحه للبخاري على كتابه الكبير في القراءات الأربع عشرة (٦٠ - ٦١).

□ ونقول إن هذا الإيهام المكثف بأن القراءات كانت تستحدث بمرور الزمن قصد به إثارة الالتباس والشبه، وليس وراءه أى واقع تاريخي. فائمة القراء الذين اختارت الأمة قراءاتهم ذكرهم أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) في مؤلفه في القراءات^(١) فذكر طبقة الصحابة الذين عرفوا بأنهم من أهل القرآن ثم ذكر التابعين الذين اشتهروا بقراءة القرآن في الأمصار الخمسة: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام (دمشق)، ثم نوه من بين هؤلاء بثلاثة من كل مصر: فمن المدينة نوه بأبي جعفر (١٣٠هـ) ونافع (١٦٩هـ) وشيبة بن نصاح (١٣٠هـ)، ومن مكة بابن كثير (١٢٠هـ) وحميد ابن قيس الأعرج (١٣٠هـ) وابن محيصن (١٢٣هـ)، ومن الكوفة يحيى بن وثاب (١٠٣هـ) وعاصم بن أبي النجود (١٢٧هـ) وسليمان بن مهران الأعمش (١٤٨هـ). وأن حمزة الزيات ١٥٦ تلاهم وهنا نوه أيضاً بأن

(١) ينظر «جمال القراء» للسخاوي ٤٩٤/٢ - ٤٩٩

سليم ابن عيسى (١٨٨هـ) اتبع قراءة حمزة - فى حين اتبع أبو بكر بن عياش (١٩٣هـ) قراءة عاصم، ومن البصرة نوه بقراءة عبد الله بن أبى إسحاق (١١٧هـ) وأبى عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) وعيسى بن عمر الثقفى (١٤٥هـ)، ومن الشام نوه بقراءة عبد الله بن عامر (١١٨هـ) ويحيى بن الحارث الذمارى (١٠٣هـ) وخليد بن سعد صاحب أبى الدرداء (١). فإذا أضفنا إلى هؤلاء الحسن البصرى (١١٠هـ) ويعقوب الحضرمى (٢٠٥هـ) ويحيى بن المبارك اليزيدى ٢٠٢ تلميذى أبى عمرو بن العلاء، وعلى بن حمزة الكسائى (١٨٩هـ) وخلف بن هشام (ت ٢٢٩) تلميذى حمزة (الأخير عن طريق سليم بن عيسى) وجدنا أن هؤلاء وحدهم هم الذين اختير كل أئمة القراءات منهم. بل نستطيع أن نقول إن الاختيار انحصر فى نافع، وابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبى عمرو، وابن عامر. ثم أبى جعفر ويعقوب وخلف ثم الحسن والأعمش وابن محيصن واليزيدى. فاختار أبو بكر بن مجاهد (٣٢٤هـ) السبعة الأولين من هؤلاء الأربعة عشر، واختار غيره ثمانية (بإضافة الأعمش أو يعقوب) وغيره العشرة الأوائل من هذه المجموعة. وجرى على هذا أكثر المؤلفين، وعدوا قراءه الأربعة الأخيرين شاذة وقد فصلنا ذلك فى كتاب آخر (٢).

والمهم هنا أن نلاحظ :

- (أ) أن الاختيار الأساسى للقراءات وقراءتها وقع من أبى عبيد (ت ٢٢٤هـ) فى صورة تنويه بإمامتهم ولم يضاف بعده إلا بعض تلاميذ الذين اختارهم هو فيعقوب واليزيدى تلميذان لأبى عمرو، والكسائى

(١) ينظر السابق...

(٢) ينظر «وثيقة نقل النص القرآنى من رسول الله ﷺ إلى أمته» د. محمد حسن جيل

وخلف تلميذان لحمزة، وأن الذين اختاروا بعد أبي عبيد وقبل ابن مجاهد^(١) وبعده أيضاً^(٢) لم يخرجوا عن هؤلاء .

(ب) وأن الأئمة الذين اشتهرت قراءاتهم هم جميعاً من أهل القرن الهجري الثاني توفوا فيه، ولم يجاوزه منهم تجاوزاً ذا بال إلا خلف بن هشام ٢٢٩هـ فهم جميعاً متقدمون .

(ج) اختيار السبعة وقع من أبي بكر بن مجاهد (المتوفى ٣٢٤هـ) أي بعد ذكر أبي عبيد القراء بمئة سنة. والقراء الذين زيدوا على السبعة كانت حياتهم قبل السبعة أو كانوا معاصرين لهم وبالطبع وجدت قراءاتهم في حياتهم (السبعة ابن عامر ١١٧هـ، ابن كثير ١٢٠هـ، عاصم ١٢٧هـ، أبو عمرو ١٥٤هـ، حمزة ١٥٦هـ، نافع ١٦٩هـ، الكسائي ١٨٩هـ) والذين زيدوا: الحسن ١١٠هـ، ابن محيصن ١٢٣هـ أبو جعفر ١٣٠هـ، الأعمش ١٤٨هـ، اليزيدي ٢٠٢هـ، ويعقوب ٢٠٥هـ) والوحيد الذي تأخر عنهم قليلاً هو خلف ٢٢٩هـ. وبهذا يتبين الإيهام الخبيث وراء قول جولد تسيهر. «سرعان ما تجاوز حد الحرية الأحرف السبعة» فهي عبارة توهم أن القراءات السبع وجدت أولاً ثم أُنشئت بعد ذلك قراءات تجاوزت السبعة كانت تتزايد حيناً بعد حين. والحقيقة التي بينها هي أن كل تلك القراءات كانت موجودة ومتعاصرة ومعروفة منذ القرنين الأول والثاني ولم تجاوزهما - أي قبل أن يحدد ابن مجاهد السبع بأكثر من مئة سنة، وأن الذي زيد على السبع كان موجوداً قبلها أو وجد معها على السواء كما بينا. ولما اقتصر ابن

(١) منهم أبو حاتم السجستاني / ٢٥٥، وأحمد بن جبير ٢٥٨هـ، وعبد الله بن مسلم (ابن قتيبة) ٢٧٦هـ، وإسماعيل بن إسحاق المالكي ٢٨٢هـ، ومحمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ، ومحمد بن أحمد الناجوني ٣٢٤هـ وابن مجاهد ٣٢٤هـ ينظر المرجع السابق ص ١١٧ .

(٢) ينظر «وثيقة نقل النص القرآني» ١١٧ - ١١٨ .

مجاهد على اختيار سبع مما كان موجوداً جاء بعده من عاد إلى اختيار واحدة أو اثنتين أو ثلاث من تلك القراءات السابقة فبلغت عشرًا اعتمدت.

(د) أن عشرات المؤلفات التي ألقت في اختيار القراءات لم تخرج عن قراءات هؤلاء. فالذين اختاروا سبع قراءات اختاروا السبعة الأولين، والذين اختاروا عشرًا ضموا إليهم أبا جعفر ويعقوب وخلقاً، والذين ألفوا في القراءات الأربع عشرة ضموا الأربعة الباقين، الذين عدت قراءاتهم شاذة. ولم يخرج عن هذا في ذلك التاريخ الطويل من القرن الهجرى الأول إلى الآن إلا الحسن بن على الأهوازي (٤٤٦هـ) في كتابه «الإقناع» وهذا الأهوازي ليس ثقة عند القوم.^(١) ولذا سقط اختياره وكتابه، ولم يتابعه عليه أحد.

وهذا التلخيص الذى قدمناه يمثل الحقيقة التاريخية فى هذه المسألة تماماً، ويكشف إيهام جولدتسيهر ومغالطته. فليس هناك تزايد ولا استحداث للقراءات بمرور الزمن. بل إن عبارته «تتالى ظهورهم حتى القرن التاسع الميلادى» فيها مزيد إيهام، فقد ذكر «التاسع» ليوهم بالتأخر الكثير - وكأنه التاسع الهجرى. والحقيقة أن التاسع الهجرى الميلادى هو الثالث الهجرى. ولم يعيش فيه من القراء العشرة زمناً يذكر إلا خلف الذى توفى ٢٢٩هـ. فالقراءات كلها قراءات أهل القرن الثانى التى أخذوها عن أهل القرن الأول عن رسول الله ﷺ.

٥ - القراءات التفسيرية :

بالنسبة لمجموعة الأمثلة التي قال عنها أنها زيادات تفسيرية ثم تراجع وتساءل أهى حقاً تفسيرية أم من النص. نقول إنه لامعنى لتساؤله فهي حقيقة إضافة قصد بها تفسير النص وقد أجمع على ذلك المتخصصون. وقد عقد السيوطى لها « نوعاً » سماه المدرج قال عنها: « وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبى وقاص « وله أخ أو أخت » (+ من أم) (التوبة ٢٨)، وقراءة ابن عباس « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » (+ فى مواسم الحج) (البقرة ١٩٨)، وقراءة ابن الزبير « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (+ ويستعينون بالله على ما أصابهم) (آل عمران ١٠٤)، وقراءة الحسن « وإن منكم إلا واردها » (+ الورود الدخول) (مريم ٧١). وقد ذكر تخريج هذه الأمثلة أى الكتب التى أوردتها، ورواتها وقال - بالنسبة للمثلين الأخيرين - إن ابن الأنبارى جزم بأنهما تفسير. ^(١) وهذا التخصيص الذى حكاه السيوطى هو مجرد التزام بنص كتاب ابن الأنبارى، وإلا فلا شك أن هذه وأمثالها - كالذى نسب إلى أمى المؤمنين عائشة وحفصة من زيادة « صلاة العصر » بعد قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (البقرة ٢٣٨) كل ذلك من الزيادات التى قصد بها التفسير ^(٢) أى بيان المراد أو

(١) ينظر الإتيان (تح محمد أبى الفضل) ٢٦٥/١ - ٢٦٦ .

(٢) فى تفسير القرطبى ٢١٣/٣ تعليقا على خبر إثبات سيدتنا عائشة فى مصحفها عبارة

صلاة العصر وقولها سمعتها من رسول الله يقرؤها « قال علماؤنا وإنما ذلك كالتفسير

من النبى ﷺ » .

تصوير ما ينبغي على المؤمن، استقاء من جو الآية أى تكملة للمراد - كما فى إضافة «ويستعينون»، السابقة. وأوضح دليل على ذلك هو انفراد هؤلاء (القارئین)، وعدم إثبات ما أضافوا فى المصحف الإمام الذى أجمع عليه المسلمون. فلا معنى لتجارة جولد تسيهر وغيره بهذه الأخبار .

وقد فسر ابن الجزرى تسامح الذين أضافوا تلك الزيادات بقراءتها مع النص خلافاً للمصحف الإمام تفسيراً مقبولاً إذ قال: «وربما كانوا يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى ﷺ قرآناً. فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه» (١)

□ ونضيف نحن أمرين: أولهما أن هذا الاتجاه التفسيرى فى قراءة القرآن الكريم اتخذ صورتين إحداهما مخرصة للتفسير وبيان المراد، وهى تلك الزيادات المضافة على النص الكريم مثل «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى» (+ صلاة العصر) وغيرها مما سبق.

والثانية تستبدل باللفظ الغامض المعنى آخر واضح المعنى تقريباً للمراد من أخصر طريق. لكن هذه الصورة ليست مخرصة للتفسير، فقد تداخل معها ذكر «الحروف» التى ذكرت فى حديث الأحرف السبعة. أى أن الكلمة الواضحة التى قرئ بها قد يقصد بها التفسير وقد تكون مما قرئ به من الأحرف السبعة تنزيلاً وتلقيناً أو إجازة وإقراراً من الرسول ﷺ.

□ وثانى الأمرين أن صورتى الاتجاه التفسيرى المذكورتين آنفاً تمثلان بشكل ابتدائى مجمل منهجين فى شرح النصوص اتخذهما علماء العرب بعد ذلك:

□ فأحد المنهجين هو الشرح الذي تتميز فيه ألفاظ صاحب النص الأصلي وعباراته مستقلة ثم يؤتى بتفسيرها مستقلاً أيضاً، ^(١) ويتمثل أصله هنا فى القراءة بالمرادف أو شبهة مثل قراءة (واتقولا يوماً لا تجزى نسمة عن نسمة) بدلاً من «... نفس عن نفس» (البقرة ٤٨) ومثل قراءة «إني نذرت للرحمن صمتاً» بدلاً من «... صوما» (مريم ٩٦)، ومثل قراءة «... لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا» بدلاً من «... حتى تستأنسوا» (النور ٢٧).

□ وبلغت هنا إلى تسامح وتذكير. أما التسامح فهو فى دقة انطباق صورة الشرح المتميز على هذا النوع من القراءة، إذ الأصل فى صورة الشرح المتميز العبارة الذى أشرنا إليه أن يذكر لفظ النص أو عبارته ثم يذكر الشرح الذى هو معناها غالباً. فالتسامح هنا هو الاكتفاء بذكر اللفظ الذى هو مقصودنا بالشرح اعتماداً على شهرة معرفة اللفظ الأصلى فهذا هو التسامح. لكننا قلنا إن هذه صورة ابتدائية مجملة لهذا النوع من الشرح تطورت عنها الصورة المدققة التى تذكر اللفظين أو العبارتين متميزتين. وأما التذكير فقد قلنا من قبل إن هذه الصورة نفسها من القراءة التفسيرية وهى التى تستبدل باللفظ الغامض آخر واضحاً قد تداخل معها ذكر «الحروف» المقصودة بالأحرف السبعة. فخلاصة الأمر أن القراءة بلفظ واضح بدلاً من آخر غامض قد يكون مقصوداً بها التفسير فيكون اللفظ من عند القارئ، وقد يكون اللفظ الذى قرئ به «حرفاً» فيكون إما منزلاً أو مجازاً من صاحب الشريعة ﷺ.

□ ثانى منهجى الشرح اللذين كانت بذرتهما القراءات التفسيرية هو ما يسمى الشرح الممزوج حيث تمتزج فيه ألفاظ الشرح بألفاظ النص

(١) ينظر كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٧/١ (أسلوبا الشرح «بقال وأقول»، «ويعقوله» كذا).

الأصلى فتصيران كأنهما عبارة واحدة. وغرض الشرح هنا بسط العبارة وذكر ما استغنى عن ذكره منها لاستيفاء ما يؤدى إلى بيان المراد واضحاً. ^(١) ومن أمثلة هذا فى (القراءات) التى أوردها جولد تسيهر قوله تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ (فاختلفوا) ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ (البقرة ٢١٣)، وقوله تعالى ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ (+ فى مواسم الحج) (البقرة ١٩٨) وقوله تعالى: ﴿وجئتمكم بآيات من ربكم، فاتقوا الله (من أجل ما جئتمكم به) وأطيعون (فيما دعوتكم إليه)﴾ (آل عمران ٥٠).

□ ونعود إلى بداية الأمر فى هذا النوع - مما زعم جولد تسيهر أنه (قراءات) لنقول أن المستيقن أنها زيادات أضيفت للتوضيح، وبيان المراد - حسب فهم القارئ، ولكنها ليست قرآناً بأى حال، ولم يعترف أحد بأنها قرآن. ولو كان المسلمون أو علماءهم ينظرون إليها على أنها من قراءات القرآن حقيقة ما أجمعوا على عدم كتابتها فى المصحف الإمام، ثم ما جرؤ أحد أن يقول بما يخالفها وبخاصة إذا كانت قطعية الدلالة. فإذا قال الله تعالى فى كفارة الميّن ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾ فهل يجرؤ أحد أن يقول إنها تجوز غير متتابعة، فيصادم النص مصادمة صريحة هكذا .

□ فمع التسليم الجدلى بصحة نسبة زيادة لفظ «متتابعات» بعد قوله تعالى فى كفارة اليمين ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ (المائدة ٨٩) إلى عبد الله بن مسعود فإنها تكون من الزيادات

(١) ينظر كشف الظنون ١/ ٣٦-٣٧ حيث الكلام عن الأمور التى يحتاج إلى الشرح من أجلها، ٣٧ حيث الكلام عن الشرح مزجاً .

التفسيرية حسب فهمه رضى الله عنه للحكم الفقهي فى كفارة اليمين ولا تلزم أحداً، لأنها ليست قرآناً. وقصارى تأثيرها أنها أحد المرجحات عند من تثبت عنده، فإذا كان الحنفية أخذوا بالقول بالتتابع فذلك اجتهاد منهم يرجحه مثلاً أن هذه المخالفة عمل واحد يناسبه أن تكون الكفارة متتابعة (دفعه واحدة)، أو يرجحه القياس على كفارة الظهار وقتل المؤمن خطأ - على أساس أن نوع الكفارة فى الأثام واحد هو الصيام، أو يرجحه قول صحابى به إلخ المهم أن قول ابن مسعود به ليس قرآناً، ولو كان قرآناً ما خالفه المالكية ولا رجح الشافعية خلافه. ^(١) بل الأهم لو كان قرآناً ما أسقط من المصحف الإمام برضا الأمة .

□ والأمر قريب من هذا فى زيادة عبارة «إلى أجل مسمى» بعد قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن» فإذا صحت نسبة هذه الزيادة إلى ابن عباس وأبى بن كعب رضى الله عنهم فيما كانت قرآناً ونسخت قراءتها وحكمها ولم يبلغهما النسخ، أو أنها لم تكن قرآناً أصلاً وإنما قيلت بياناً لما روى من أن النبى ﷺ كان قد رخص فى نكاح المتعة فى بعض الحروب أو فى بدء الإسلام قبل تشريعات الزواج والطلاق بأحكامها، ثم ألغى ﷺ الرخصة فيها ولم يبلغهما إلغاء الرخصة. لكن المهم أنها ليست قرآناً بدليل الإجماع على عدم ذكر هذه العبارة فى المصحف الإمام، وعلى تحريم المتعة أو نسخها، وبدليل قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - وقد تولى بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ بعامين فقط، «لا أوتى

(١) ينظر الميزان للشعرانى ٢٥٢/١ ورحمة الأمة للدمشقى العثمانى ٤٠٢/٢ والكتابان

معاً فى مجلد واحد بترقيم متتابع (دار الفكر) .

برجل تزوج متعة إلا غيبته تحت الحجارة». (أى رجمته إذا كان محصناً) ولو كانت قرآناً ماجرؤ عالم على استباحتها فكيف بالإجماع على تحريمها . وهنا نقطتان أحب أن أبرزهما فى هذه المناسبة. أولاهما (كأنها استطراد) قول الإمام أبى عمر بن عبد البر «لم يختلف العلماء من السلف والخلف أن المتعة نكاح إلى أجل لاميراث فيه، والفرقة تقع عند انقضاء الأجل من غير طلاق» اهـ ومعنى تعبير ابن عبد البر بقوله «نكاح إلى أجل» أنها نكاح شرعى بولى وشاهدين، وأن الذى يميزها عنه هو الأجل. قال الإمام المفسر أبو محمد عبد الحق بن عطية «وكانت المتعة أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الولى إلى أجل مسمى، وعلى أن لاميراث بينهما، ويعطيها ما اتفقا عليه، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، ويستبرئ رحمها لأن الولد لاحق فيه (أى فى هذا النكاح. ولعل الكلمة به أى بالزوج) بلا شك. فإن لم تحمل حلت لغيره» اهـ. ^(١) وقد علق القرطبى على قول بأنها بغير شاهد ولا عدة بأن «هذا هو الزنى بعينه، ولم يبح قط فى الإسلام» ^(٢).

□ النقطة الثانية أن السياق فى الآية التى نحن بصددنا يقطع بأن عبارة «إلى أجل مسمى» التى قيل إنها كانت بعد قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن» هى عبارة مقحمة ولم تكن قرآناً قط. فإن قبلها - بعد ذكر المحرمات من النساء - «وأحل لكم ما وراء

(١) ما ذكرناه هنا عن المتعة مقتضب مما فى تفسير القرطبى (الهيئة المصرية العامة)

١٢٩/٥ - ١٣٣ وينظر الوجيز لابن عطية (قطر) ٩/٥ - ١٠، وفى البحر لأبى حيان

(دار الفكر) ٢١٨/٣ «وقد ثبت تحريمها عن رسول الله ﷺ من حديث على وغيره»

اهـ وحديث على فى القرطبى .

(٢) تفسير القرطبى ١٣٢/٥ .

ذلكم: أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين» فقوله ماوراء ذلكم أى ماسوى المحرمات السابق ذكرهن. وقوله «أن تبتغوا بأموالكم أى أن تطلبوا بها نساء للنكاح أى للتزوج بهن، وقوله تعالى ﴿محصنين غير مسافحين﴾ يمنع تماماً نكاح المتعة، لأن الذى يتزوج امرأة إلى أجل هو لا يحصنها، بل يهيجها ثم يتركها، ثم هو أشبه بالمسافح، لأن أصل التعبير بالسفاح يشير إلى إطفاء الشهوة بسفح الماء، ثم لما كان يؤدى إلى الزنى استعمل فيه. فكيف يتأتى بعد قوله تعالى ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أن تكون القراءة ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ (إلى أجل مسمى) هذا لا يناسب السياق أبداً.

وهذا يؤكد ماقلته قبلاً أن عبارة «إلى أجل مسمى» هنا فى هذه الآية لم تكن قرآناً قط، ولكن جولد تسيهر يشير العكر ببعض الأقوال والروايات ليصطاد، ويصطاد.

٦ - ما نسبت نشأته إلى التنزيه :

بالنسبة لمجموعة (القراءات) التي ادعى جولد تسيهر أنها نشأت أو لجئ إليها بسبب الحرص على تنزيه الذات الإلهية وتنزيه الرسول ﷺ عن المعاني غير اللائقة التي قد تفهم من القراءة الأولى. نقول أولاً إن هذه الفكرة إيهام محض، فهو يريد أن يزرع في قلوبنا أن القراءة تؤسس أو تعدل بناء على تصورات البشر أو أفكارهم، في حين أن القراءة مصدر ثبوتها الرواية الصحيحة المتواترة أو المشهورة فإذا توافر لها هذا مع موافقة الرسم وموافقة العربية فلا ينظر في قبولها إلى تنزيه أو غيره .

ثم إن القرآن زاخر بالتعبيرات الصريحة عن تنزيه ذات الله تعالى بحيث قمحى وتزول كل شبهة مساس بالتنزيه إزاء هذه التعبيرات أو بعضها، ولا يتوقف جلال الله ولا شرف قدر رسول الله ﷺ على (قراءة) تخترع. فقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾^(١) يحمل معنى كل صور التنزيه. وقد جاءت عبارات تسبيح الله فعلية ومصدرية في القرآن الكريم نحو تسعين مرة^(٢)، والتسبيح معناه التنزيه، كذلك جاء التعبير بالفعل «تعالى» مسنداً إلى الله عز وجل أربع عشرة مرة^(٣) (وهو بمعنى التنزيه). فليس بالمسلمين حاجة إلى تكلف قراءة ينزهون بها المولى عز وجل - بعد هذه التعبيرات الصريحة والمتنوعة عن تنزيهه سبحانه وتعالى .

□ كذلك ففي القرآن الكريم في وصف النبي ﷺ ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وهذه تعنى - وتغنى عن - كل تنزيه في الجانب الخلقى. وفيه ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً.

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (سبح) .

(٣) ينظر السابق (علا) .

(٤) سورة القلم ٤ .

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^(١) وفيه ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه... إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. يد الله فوق أيديهم﴾^(٢) وليس فوق ذلك كله تشريف أو تنزيه أو إعلاء لمقامه ﷺ .

□ ونقول ثالثاً إن في القرآن الكثير من نوعية الآيات التي ظن جولد تسيهر أن وراء ما زعمه (قراءات) فيها تحريفاً متعمداً قصد به تنزيه الله تعالى ورسوله ﷺ. والكلام نفسه متناقض لأن الذي يؤمن بالله ورسوله لا يجزؤ على أن يغير كلام الله. ويكفي مثال واحد من كل نوع فالفعل «كان» يعبر عن وقوع شئ في الماضي وانقطع وقوعه - وقد جاء في القرآن الكريم مستنداً إلى الله عز وجل نحو (٩٢) اثنتين وتسعين مرة^(٣) ﴿إِن اللّٰه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٤) ولم يفهم أحد أن رقابة الله على خلقه انقطعت، كما لم يحتج أحد من المسلمين إلى تحريف القراءة ليتزه المولى عز وجل عن انقطاع رقابته على خلقه، وإنما فقه علماء المسلمين أن «كان» قد تجرد من معنى انقطاع ما تخبر عنه لتخلص لمعنى الزمن المستمر كما هي في هذه الآيات. والمثل الثاني أفعال الأمر والنهي الموجهة إلى رسول الله ﷺ التي قد يتوهم منها جولد تسيهر وأمثاله أنها توجهه ﷺ إلى الأخذ بشئ لم يكن مأخوذاً به أو تنهاه ﷺ عن شئ كان واقعاً فيه - مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(٥) فقد

(١) سورة الأحزاب ٤٥ -

(٢) سورة التفتح ٨، ٩، ١٠ -

(٣) إحصاء من المعجم المفهرس (كان) -

(٤) سورة النساء -

(٥) سورة الشورى ١١ -

فقه منها المسلمون - دون حاجة إلى اختراع قراءة تنزيهية - أن الأمر والنهى فى مثل هذه الأمور هو للاستمرار والثبات على ما هو فيه أى اثبت واستمر على ما أنت عليه من التقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

□ وأريد أن أبرز هنا أن تخريج (أى تأويل) مثل هذه الآيات التى زعم جولد تسيهر أنها موهمة هو من البدهيات عند علماء التفسير وعلماء اللغة، وأنهم اعتمدوا فى تأويلها على ما جرت به الاستعمالات العربية، وعلى ما جرى وشاع فى الاستعمالات القرآنية باعتداد القرآن الكريم أوسع وأعظم الآثار النثرية المحتج بها فى اللغة العربية .

□ كما أبرز تكلف جولد تسيهر نصب معركة حول كل مثل من أمثلة هذا النوع وعناصر التكلف (= الافتعال) تتمثل فى :

(أ) تصيد ماسماه «قراءة» فى كل منها - فى حين أن أكثرها غير معترف بكونه قراءة .

(ب) ادعاء أن تلك القراءة تشير معنى ينافى التنزيه - فى حين أن الأمر ليس كذلك .

وتتبع الأمثلة التى جاء بها يكشف هزل ادعاءاته .

الفصل الثالث

مناقشة جولد تسيهر في الأمثلة التي احتج بها

- ١ - فبالنسبة لقوله تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» (آل عمران ١٨) قال جولد تسيهر إن بعضهم أدرك ماثيره شهادةُ الله لنفسه، لاسيما مع قَرْن ذكره بالملائكة وأولى العلم على أنهم شاهدون معه، فاستعانوا على علاج ذلك بالاستعاضة عن قراءة الفعل «شَهِدَ اللَّهُ» بصيغة الجمع «شُهِدُوا» الله» رابطين ذلك بالسياق في الآية السابقة على أن يكون المعنى: «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار».
- شهداءُ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ إلخ.» (١)

المناقشة :

- ١ - (القراءة): «شهداء» ليست من القراءات المعتمدة فلا هي من السبع، ولا من الثلاث المكملة للعشر، ولا من الأربع الشواذ الزائدة عن العشر^(٢). وإنما نسبت إلى «أبي المهلب عم محارب بن دثار». وأبو المهلب هذا غير معروف وحتى لو كان معروفاً، وثبتت نسبة القراءة إليه أو إلى غيره ما كان لذلك من أثر مادامت لم يؤخذ بها في السبع ولا في العشر.

- ٢ - ماذا ثبته شهادةُ الله "أحمد القهار لنفسه وإعلانه تعالى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وإعلانه أَن الْمَلَائِكَةَ وَأُولُو الْعِلْمِ يشهدون بذلك أيضاً - ماذا يثبته هذا غير دفع ذوى الأبواب وأهل العلم ليتأملوا الآيات الدالة على الله ويشهدوا له سبحانه بالألوهية والوحدانية والقيام بالقسط

(١) مذاهب التفسير ٣٢ - ٣٣.

(٢) ينظر السبعة لابن مجاهد، وغاية الاختصار، والنشر، وإحاف فضلاء البشر.

كما شهد الملائكة وأولو العلم؟ إن هذه إثارة مشروعة ومقصودة. أما ما عدا ذلك فمَنْ كانت له شائبة مشاركةٍ لله أو جَحْدُ لأى من صفاته فأثارتَه هذه الآية فلا أطفأ اللهُ ثائرته، إن جولد تسيهر يتوهم أو يُوهم بهواجس يريد أن يثيرها هو .

٣ - أَيْ فَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَشْهَدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ بِالْأُلُوْهِيَةِ وَالْوَحْدَانِيَةِ وَيَبِينُ أَنْ يَقُولَ سُبْحَانَهُ «إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» (طه ١٤) أَوْ يَقُولَ سُبْحَانَهُ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ»...؟ لافرق إلا هواجس جولد تسيهر .

٤ - الْآيَاتُ الْمَعْبُورَةُ عَنْ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا مَا هُوَ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ. وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً» (النساء ١٦٦) وكذلك «قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَوْحَى إِلَى هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...» (الأنعام ١٩) وكذلك (آل عمران ٨١، والنساء ٧٩) وآيات أخرى كثيرة .

٥ - يَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَنَّ مَا قَالَهُ جَوْلِدُ تَسِيْهَرُ عَمَّا تَشِيْرُهُ آيَةُ «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» هُوَ كَلَامٌ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا حَقِيقَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ هَوَاجِسُ يَشِيْرُهَا هُوَ وَيَخْتَلِقُهَا لِيَدْعِمَ بِهَا الْفِرْيَةَ الَّتِي افْتَرَاهَا وَهِيَ نَشْأَةُ الْقِرَاءَاتِ أَوْ تَعْدِيلُهَا تَأْثُرًا بِأَفْكَارٍ أَوْ شُبُهٍ بَشَرِيَّةٍ .

- ٢ - فى قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ (آل عمران ١٦١) وردت فيها قراءتان «أَنْ يَغُلَّ» (بفتح الياء وضم الغين)، وأن يُغْلَّ (بضم الياء وفتح الغين). وجاءت فى تفسير الطبرى روايات بأن سبب نزولها - على القراءة الأولى، أنه فُقِدَت قطيفة من مغانم القوم يوم بدر. فظن بعض من كان مع النبى ﷺ أن النبى ﷺ أخذها، فنفى القرآن ذلك وسماه غُلُولاً^(١)، وفى رواية أخرى لسبب النزول أن رسول الله ﷺ كان وَجَّهَ طَلَاتِعَ فى وَجْهِهِ، ثم جاءت الغنائم فقسّمها ﷺ فى مَنْ شهد الواقعة دون الطلائع،^(٢) فأحكم الله عن ذلك وسماه غلُولاً .
- وهناك رواية ثالثة خلاصتها أن التعبير بالغلول هنا مجاز عن كتمان النبى شيئاً مما أُنْزِلَ الله عليه رهبةً أو رغبةً بمعنى أنه يبلغهم كل ما أوحى إليه.^(٣)
- وأما على القراءة الثانية فقالوا إن المعنى ماكان لنبي أن يغُلَّ أصحابه أن يخونوه بأن (يسرقوا) من الغنيمة قبل القسّم، ثم بُنى الفعل للمفعول .
- وهناك تفسير آخر لهذه القراءة الثانية أن يكون المعنى: أن يُتَّهَم بالغلول^(٤).
- وتفسير ثالث لهذه القراءة: أنها للمفعول من أغله بمعنى وجده غالاً كقولهم أحمدته: وجده حمداً.^(٥)

(١) تفسير الطبرى (شاكر) ٣٤٨/٧ - ٣٥٠ .

(٢) نفسه ٣٥٠/٧ - ٣٥٢ .

(٣) نفسه ٣٥٢/٧ - ٣٥٣ .

(٤) نفسه ٣٥٣/٧ - ٣٥٤ (تفسير القراءة بالمبنى للمجهول) .

(٥) هذا الوجه ذكر فى البحر ١٠١/٣ آخر المعانى وفى الدر المنصون للسمين (دار القلم)

- فهذه ستة تفسيرات للعبارة القرآنية - على قراءتها .
- وننبه إلى أمور : (أ) أن الذين ظنوا أن النبي ﷺ أخذ القطيفة إنما ظنوا أنه اختص نفسه بها قياساً على ما كان يُعدّ في الجاهلية من حقوق رئيس القوم في الغنائم - على حدّ ما ذكر الشاعر هذه الحقوق في قوله :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا، وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ، وَالنَّشِيطَةُ، وَالْفُضُولُ^(١)

وسمى القرآن مالم يُجزّه الإسلام من تلك الحقوق غلواً ونفاه عن النبي ﷺ.

ب - أن ابن عباس رضى الله عنهما قبل القراءة الأولى (البناء للمعلوم = للفاعل) وحدها، وعلق على قراءة (يُغَلّ) بالبناء للمفعول بقوله «بَلَى، وَيُقْتَلُ»^(٢) يعنى أن الصياغة تنفى - حسب المعنى الأول لهذه القراءة - إمكان أن يَغَلّ الناسُ نبيّهم أى يخونوه بسرقه ماتحت يده مثلاً، فى حين أن الواقع أن بعضاً من أمم الأنبياء قتلوا نبيهم ولم يقتصروا على خيانتهم. يريد أن يقول إن معنى القراءة غير مُسَلَّم فهي ضعيفة. وقد بيّنا معانى القراءة بالبناء للمفعول، وقلنا من قبل إن القراءة تثبت بالرواية بشروطها، وإن التوجيه اجتهادات مفتوحة لا يتوقف ثبوت القراءة على قبولها. والمهم هنا أن ابن عباس ضَعَف القراءة بالمبنى للمفعول .

(ج) الطبرى أيضاً اختار القراءة بالمبنى للمعلوم (= للفاعل)، وضعف المعنى الخامس - وهو ثانى معانى القراءة بالمبنى للمفعول - من حيث

(١) ينظر لسان العرب (نشط) ففيه تفصيل هذه المخصصات الخمسة .

(٢) ينظر تفسير الطبرى (شاكر) ٧/ ٣٥٠ رقم ٨١٤٢ .

الصياغة، إذ لا يتأتى أن يفسر بنفى إمكان الاتهام بالغلول إلا لو كان الفعل «يَغْلُلُ» كما يقال فلان يُقَسِّقُ وَيُفَجِّرُ أى يُنْسَبُ وَيُنْهَمُ بالفسق والفجور، ثم أجاز ذلك على نيابة أَفْعَلَ عن فَعَّلَ هنا. كما ضَعَّفَهَا من حيث المعنى بأن الوعيد فى العبارة: «ومن يَغْلُلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هو على الغلول لا على الاتهام به، وبأن غير النبی أيضاً لا يجوز أن يُتَّهَمَ باطلاً. (١)

(د) لم يُفَضَّلْ أحد القراءة بالمبنى للمفعول هنا على الإطلاق أعنى لم يخصها أحد بمدح كما خص ابن عباس والطبرى القراءة بالمبنى للفاعل بذلك .

(هـ) يأتى جولد تسيهر بعد ذلك كله ليوهنا أن القراءة بالمبنى للمفعول تولدت لتنزيه النبی ﷺ عن أن يكون مناطاً للريبة التى توحى بها القراءة بالمبنى للفاعل (٢). وقد وضع بما سبق أن ادعاه هذا هراء لأصل له .

(و) المفاجأة التى تثبت إغراق جولد تسيهر فى الإفك والمباهة أن القراءة بالمبنى للفاعل هى التى نَسَبَ إليها المفسر أبو حيان معنى التنزيه، وأغفل التأويل الذى حمَّله جولد تسيهر معنى التنزيه .

قال أبو حيان «قرأ ابن عباس، وابن كثير وأبو عمرو وعاصم - (الثلاثة من السبعة) يَغْلُ من مَثَلٍ مَبْنِيٍّ للفاعل، والمعنى أنه لا يمكن ذلك (أى وقوع الغلول) منه ﷺ، لأن الغلول معصية، والنبي ﷺ معصوم من المعاصى فلا يمكن أن يقع فى شيء منها. وهذا النفى إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُتَوَهَّمَ فيه ذلك، ولأن يُنْسَبَ إليه شيء من ذلك.

(١) ينظر السابق نفسه ٣٥٤/٧ - ٣٥٥ .

(٢) ينظر مذاهب التفسير ٤٠ .

وقرأ ابن مسعود وباقي السبعة (نافع، وابن عامر، والكسائي، وحمزة) بضم الياء وفتح الغين مبنياً للمفعول. فقال الجمهور هو من غل والمعنى ليس لأحد أن يخونه في الغنيمة فهي نَهَى للناس عن الغلول في المغانم، وَخَصَّ النبي ﷺ بالذكر (يعنى صيغت العبارة: ما كان لنبي أن يُغَلَّ) وإن كان ذلك (الغلول) حراماً مع غيره، لأن المعصية بحضرة النبي أشنع، لما يجب من تعظيمه وتوقيره، كالمعصية بالمكان الشريف واليوم المعظم. وقيل هو من أَغَلَّ رباعياً والمعنى «أن يُوجَدَ غَالاً» (أى لايتأتى ذلك) كما تقول «أُحِمِدَ الرجلُ»: وَجَدَ محموداً. وقال أبو علي الفارسي هو من أُغِلَّ أى نُسِبَ إلى الغلول.. كقولهم أَكْفَر الرجل نسب إلى الكفر. «ا هـ (١)

(ز) يتبين من ذلك كله أنه لأساس لما ادَّعاه جولد تسيهر من أن قراءة الفعل «يُغَلَّ» في الآية بالمبنى للمفعول نشأت لإزالة ما تسببه قراءة هذا الفعل بالبناء للفاعل من لحاق ريبة أو أمر غير لائق بالرسول ﷺ، فالقراءة بالمبنى للفاعل سبعية باقية، وتعطى معنى التنزيه الذي زعمه جولد تسيهر سبباً لوجود القراءة بالمبنى للمفعول فيكون ذلك المعنى خاصاً بها على زعمه، ثم إن المسألة لم يكن بها - منذ أول الأمر - أية ريبة حقيقية كما بيننا، فَمَعَاذَ اللَّهِ أن يظن صحابي برسول الله ﷺ خيانة، وهو الذي عُرف بالأمين - حتى من قبل بعثته ﷺ، أما المفسرون فإنهم يلاحقون الألفاظ وظلالها سواء ما كان من تلك الظلال له أصل واقع وماليس كذلك .

٣ - قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ البقرة (١٣٧).

قال جولد تسيهر: إنه غلبت على نفوس الأتقياء المتخوفين شبهة -
لأساس لها أصلاً عند الإمعان اللغوي - هي أن منطوق اللفظ
يضع على ذلك إلى جانب الله مثلاً يدعى أنهم يؤمنون به. وهم (يعنى
الأتقياء المتخوفين) يبعدون الشبهة التي تخامرهم بتغيير مستأصل
فيحذفون من النص لفظ «مثل» الذي أثار هذه الشبهة. (١)

المناقشة :

١ - لا بد من تسجيل هنا أن جولد تسيهر قرر صراحة (أ) أن المسألة هنا
«شبهة» أي مجرد التباس ليس وراءه حقيقة. (ب) وأن تلك
الشبهة «لأساس لها أصلاً عند الإمعان اللغوي» (ج) وأن
الذي أثار بليلة المفسرين هو ما استشعره بعضهم من «منطوق
اللفظ». وهو يعنى كلمة «مثل» خاصة (د) ثم عاد فأكد كونها
شبهة بقوله إنها كانت تخامرهم أي: إنها كانت مجرد (هاجس)
لاحقيقة مستقرة. وهذا كله يعنى أن جولد تسيهر كان يعلم أن الأمر
الذي بنى عليه ادعاه اختراع قراءة إنما هو شبهة وهاجس لأصل له،
وأن تلك الشبهة يمكن لمن يتمعن أن يطرد هاجسها أو يدحضها،
ولكنه برغم ذلك استغل نظرة بعض المفسرين الجزئية الضيقة ليدعم
ادعاه أن المسلمين كانوا يختلقون قراءات لأصل لها، ليستجنبوا
الشبه.

فعلينا نحن أن نلاحظ كل ذلك، وعلينا ألا نعجب من أجل أن الرجل لم يلتفت إلى ماقرره صراحة من أن المسألة مجرد شبهة وهاجس لأصل له، كما لم يلتفت إلى أن تلك القراءة التي يدعى أن المسلمين اختلقوها هي ليست على التحقيق «قراءة» فهي ليست من السبع أو الثلاث المكملة للعشر أو الأربعة التي فوق العشر. نعم علينا أن لانعجب من هذا، بل نُوثِّق به أن الرجل ليس باغى حق أو حقيقة، بل هو باغى فتنة وتشكيك. وعلى الذين يشقون فيه وفي أمثاله من المستشرقين أو يحسنون بهم الظن أن يراجعوا مواقفهم ويغنوا النظر في كلامهم ليكشفوا خباياه ومراميه الخبيثة.

٢ - للعبارة وجوه صحيحة قريبة :

أولاً: أن «مثل» على بابها أى تشبيهية، لكن التشبيه معقود بين الإيمانيين أى فإن آمنوا بما ذكر فى قوله تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلخ...﴾ مثل إيمانكم به. وهنا يمكن أن تكون المماثلة فى تحقق أصل الإيمان أى الاعتقاد. ويمكن أن تكون المماثلة شاملة للكيفية التى يعتقدها المسلمون فى إيمانهم بالله: أنه سبحانه واحد أحد لا شريك له وليس أحد ثلاثة كما يقول النصارى، وليس له ولد كما قالت اليهود عزير ابن الله، وكما قالت النصارى المسيح ابن الله، وكما قال غيرهم الملائكة بنات الله. وتشمل الكيفية هنا أيضاً الإيمان برسول الله بلا تفريق بينهم، ويكتب الله - كما أنزلت بلا تحريف للكلم عن مواضعه ولا إخفاء (تضييع آيات أو نحو ذلك). وواضح أن المثلية هنا ركن أساسى فى صحة الإيمان، وهذا التفسير هو الذى يناسب الآية. وهنا يمكن أن تكون الباء فى «مثل» للتعددية - أى على بابها مع آمن، و«مثل» معناها مماثل. وتقول إلى معنى «نفس» أو «ذات»، وذلك لأن تركيب «مَثَل» يعبر عن «تشخيص الشئ» أى «نصب شخصه»

كما فى قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الرعد ٣٥ وكذلك آية سورة محمد) وقد فسرُوا «مثل» فبينما به «صفة» وهو جد قريب من التشخيص، لكن التركيب يعبر عن «التشخيص» ومن معنى «التشخيص» جاء معنى المشابهة الذى فسرت به الكلمة. لكننا نعلم أن المماثل ليس مشابهاً فحسب وإنما هو صورة أخرى من الشئ تكون هى وهو سواء. ومن هذا فإننا نفضل أن يكون تفسير «بمثل ما آمنتم به» هو بذات ما آمنتم به. وبهذا يمكن أن يفسر قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى «ليس كذاته شئ».

ثانياً: الذى قلناه فى أولاً يقرب منه جداً ذلك الأسلوب الذى يستعمله العرب كثيراً، ويعدده علماء البيان كناية وذلك فى قولهم مثلك: لا يبخل أو نحو ذلك، يعنون «أنت لا تبخل».

ثالثاً: ذلك المعنى الذى فسرنا به العبارة القرآنية الكريمة يكاد يكون عين ما أولها به الطبرى، لكن بعبارة أخرى، حيث قال إن معناها «فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، وأقروا بذلك مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم = فَنَقَدْ وَفَّقُوا وَرَشَدُوا، ولزموا طريق الحق واهتدوا.» ثم عاد فكرر المعنى بعبارة أخرى «فإن صدقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عدنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا. فالتشبيه (يعنى المثلية فى كلمة بمثل) إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل «مرَّ عمرو بأخيك مثل ما مررت به» يعنى بذلك «مر عمرو بأخيك مثل مرورى به». والتمثيل إنما دخل تمثيلاً بين المورين، لا بين

عمرو وبين المتكلم. فكَذَلِكَ «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ» إِنَّمَا وَقَعَ التمثيل بين الإيمانيين، لا بين المؤمن به» اهـ. (١)

وننبه إلى:

(أ) أن كلامنا عن معنى تركيب «مثل» هو اجتهادنا. وَجَّعَ استعمالات التركيب على معنى هكذا = هو مذهب فى التحليل اللغوى المؤدى إلى تحرير المعانى، وهذا المذهب اتخذ مكانه المكين بعد الطبرى (٣١٠هـ) على يد الإمام أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، وهو مذهب صحيح شهد بصحته اطراده فى آلاف التراكيب .

(ب) أن عبارة الطبرى عن معنى العبارة القرآنية يمكن أن تفهم بالمستويين اللذين ذكرناهما: مستوى تحصيل أصل الإيمان، ومستوى تحصيل أصل الإيمان مع شروطه التى سمينها كيفية والتى هى قيد أساسى فى المماثلة. فعبارة الطبرى الأولى «فَإِنْ صَدَقَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ... بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.. مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون» تعطى تفسيرها مجملًا (مجرد المثلية فى الإيمان بمعنى التصديق)، وعبارة الثانية «فَإِنْ صَدَقُوا مِثْلَ تَصَدِيقِكُمْ بِمَا صَدَقْتُمْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا عَدَدْنَا عَلَيْكُمْ..» تعطيه بأقرب ما يكون إلى التفصيل، لأن المثلية فيه تعم التصديق والمصدق به. والمثلية فى المصدق به تعنى ما عليه عقيدة المسلمين فى ذاك المصدق به من أنه سبحانه وتعالى لا شريك له (النصارى يجعلونه تعالى ثالث ثلاثة)، ولأولده له (اليهود والنصارى قالوا إن له تعالى ولداً). وكذلك الإيمان بكل كتب الله - لا يكتب دون أخرى، ولا بيعض أى كتاب منها دون بعض، وبكل رسله دون تفريق.. وهكذا .

□ والمقصود بهذه الفقرة (ب) من كلامنا أن نقول إن التفسير الذى فسرنا به العبارة هو نفس تفسير الطبرى - مع بسط أو تفصيل. وذلك التفسير الذى قاله الطبرى أَخَذَهُ من نص الآية وتركيبها العربى - على ما فصلنا - فهو تفسير صحيح إن شاء الله .

وقد قدم القرطبى التفسير الذى اخترناه حسب ما أجمله الطبرى فقال «المعنى : فإن آمنوا بمثل إيمانكم وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين» وأضاف أنه «قيل إن الباء زائدة»^(١). وقد تبين من التفسير الذى قدمناه نحن أن الباء ليست زائدة، فهى لتعدية «آمنوا». والقول بزيادة حرف فى الكلام المحكم هو شىء مخالف للأصل، لا يُقبل إلا بينة قاضية لافكاك منها، وليس هنا شىء يقضى بالزيادة .

ثم ذكر القرطبى ما روى عن ابن عباس أنه كان يقرأ «فإن آمنوا بالذى آمنتم به» وقال هذا هو معنى القراءة وإن خالف المصحف - ف«مثل» زائدة كما هى فى «ليس كمثله شىء». كذلك ذكر رواية قول ابن عباس لا تقولوا «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به» فإن الله ليس له مثل، ولكن قولوا بالذى آمنتم به. والمعنى: فإن آمنوا بنبيكم وبعامة الأنبياء، ولم يفرقوا بينهم كما لم تفرقوا فقد اهتدوا، وإن أبوا إلا التفريق فهم الناكبون عن الدين. ثم جاء القرطبى بعبارة هذا نصها: «والذى روى عن ابن عباس من نهيه عن القراءة العامة شىء ذهب إليه للمبالغة فى نفى التشبيه عن الله عز وجل. وقال ابن عطية هذا من ابن عباس على جهة التفسير. هكذا فليُتَأَوَّل. وقد قيل إن الباء بمعنى على والمعنى فإن آمنوا على مثل إيمانكم. وقيل «مثل» على بابها أى بمثل المنزل. دليله قوله تعالى «وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب» وقوله «قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم»^(٢) اهـ. وأقول إن كلام القرطبى هذا يعنى أنه لا يقبل القول بزيادة «مثل»، لكنه نظر لذلك بآيتين ليس فيهما

(١) القرطبى ١٤٢/٢ .

(٢) نفسه .

مثل، وإنما فيهما الإيمان بالكتب المنزلة. وهو يقصد أن المثلية في الآية التي هي موضع المسألة تتضمن الإيمان بالكتب المنزلة، وهذه الكتب بعضها مثل بعض من حيث كونها منزلة من عند الله أصلاً. لكننا يثبتنا أن «مثل» في الآية مقصودة، لأنها تعنى المثلية في تحقق شروط الإيمان بالله وكتبه ورسله - كما سبق. فنحن نقبل من كلام القرطبي ما يتفق مع ما وافقنا فيه الطبري، وكون الباء بمعنى «على» يتفق مع ما اخترناه، وكلمة ابن عطية نفيسة.

رابعاً: الإمام الفخر الرازي جاء بأربعة تفاسير للعبارة القرآنية الكريمة: (أ) إن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم في الصحة والسادات فقد اهتدوا. ثم نظراً إلى أنه يستحيل أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين في السداد، لأن مبناه الإيمان بنبوة كل من ظهر عليه المعجز (أى أن أساسه عام حياى)، وأن كل ما غاير هذا الدين لابد أن يشتمل على التناقض، فهو لا يساوى الإسلام في السداد والصحة، وعلى ذلك فإنه يستحيل الاهتداء بغير الإسلام فيلزم من هذا ضرورة أن دين الإسلام هو الوحيد الذى يهتدى به. (١) هذا معنى التفسير الأول الذى ذكره الرازي. ويعيب هذا التفسير أمران الأول: أنهم لا يؤمنون بأنه لا يوجد دين مماثل لدين الإسلام في السداد، بل يظنون أنهم على سداد. والثانى أن دعوتهم إلى الإسلام - بناء على هذا التفسير دعوة باللازم وليست مباشرة خاصة، فى حين أن الآية لاتوجه توجيهها عاماً بالبحث عن دين صحيح، وإنما هى تدعو إلى عقيدة الإسلام خاصة.

(ب) التفسير الثانى أن «مثل» صلة كما فى قوله تعالى «ليس كمثله شىء» أى ليس كهو شىء. فىكون المعنى فإن آمنوا بما آمتم به. ويعيب هذا التفسير أمران: أولهما: أن القول بأن كلمة قرآنية ما هى كلمة زائدة لامعنى لها هو قول مرفوض لأن الله قال «أحكمست

آياته» ثانيهما: أن معناها يُهْدِرُ معنى «مثل» وقد بينا أنه مقصود .

(ج) التفسير الثالث أن المعنى فإن آمنوا بمثل القرآن وهو التوراة من غير تصحيف وتحريف كما آمنتم بالقرآن كذلك فقد اهتدوا لأن التوراة غير المحرفة توصلهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ.

ويعيب هذا التفسير ثلاثة أمور: أولها أنه يخصص الإيمان بالتوراة. وهذا مصادم لما ذكرته الآية السابقة على العبارة القرآنية التي هل محل البحث، وهي الآية التي ترجع المثلية إلى مافيهـا. «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...» والأمر الثاني أنهم يؤمنون بالتوراة حسب ادعائهم ولا يعترفون بأنهم حرقوها، فكأن هذا التفسير يدعوهم إلى التمسك بالتوراة. وهذا خطأ. والأمر الثالث: أن الدعوة بناء على هذا التفسير تكون غير مباشرة .

(د) التفسير الرابع أنهم إن صاروا مؤمنين بمثل ما صرتم به مؤمنين فقد اهتدوا. فالتمثيل في الآية بين الإيمانين والتصديقين. لكن يلاحظ أن هذه العبارة «صاروا مؤمنين بمثل ما صرتم به مؤمنين» فسرت بنطق الشهادتين، فتكون الباء للاستعانة. لكن هذا إجمال، والسياق يقضى بأن المطلوب التفصيل. أى أن يعبروا عن إيمانهم بالله ويكتبه التي أنزلها على رسله، وبما أوتى الأنبياء، وبأنهم لا يفرقون بينهم، وبأنهم مسلمون لله وقد اختار الرازى التفسير الأول. وقد بينا نحن مافيهـا. كما أنه لم يُحْكَمْ هذا التفسير الأخير. ثم إنه أضاف هنا قول القاضى (البيضاوى) «لا وجه لترك القراءة المتواترة، من حيث يشكل المعنى ويلبس، لأن ذلك إن جعله المرء مذهباً لزمه أن يغير تلاوة كل الآيات المتشابهات. وذلك محذور. ثم قال الرازى: والوجه الأول فى الجواب هو المعتمد .

٤ - قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾. (يوسف ١١٠) صَوَّرَ جولد تسيهر الأمر على مايلي:

(أ) القراءة الأصلية هي: «كَذَّبُوا» بالبناء للمعلوم مخففة. وواو الجماعة في الفعلين «ظنوا»، «كَذَّبُوا» للرسول. أى ظن الرسل أنهم قد كذبوا على أقوامهم، لأنهم أنذروهم بعذاب، فتأخر وقوع العذاب. فظنوا أنه لن يقع، فيكونون قد كذبوا على أقوامهم.

ثم إن علماء المسلمين وجدوا أن نسبة هذا المعنى (ظنَّ الرسل في أنفسهم أنهم كَذَّبُوا على أقوامهم) غير مناسب، واشتركت أم المؤمنين عائشة في حلِّ هذا الإشكال لتنزيه الرسل عما يقتضيه هذا الظن من تشكُّك الرسل في أنفسهم وفي حَقِّية رسالاتهم.

(ب) يقول جولد تسيهر إنه حلًّا لتلك المشكلة قرأ بعضهم «كَذَّبُوا» مبنية للمفعول مشددة الذال أو مخففة (والضميران للرسول أيضا) والمعنى أن الرسل ظنوا أن أقوامهم كَذَّبُوهم أى تحققوا من كذبهم في ادعائهم الرسالة وفي إنذارهم بالعذاب إن لم يؤمنوا. لأن العذاب تأخر ولم يقع. ثم قال جولد تسيهر إن هذه القراءة الجديدة اقتضت من علماء المسلمين أن يَتَوَلَّوْا الظن إلى معنى العلم.

(ج) ثم عاد فزعم أن بعض أولئك (العلماء أو القراء) أَبَقُوا القراءة الأولى («كَذَّبُوا» بالبناء للمعلوم) كما هي، ووجهوا تصرفهم إلى مرجع الضميرين. فالضمير في «ظنوا» للمشركين وفي «كَذَّبُوا» للرسول، أو العكس، بمعنى ظن الرسل أن المشركين قد كذبوا. وهنا عاد ليكرر أن هذا الجهد لإنقاذ قراءة «كَذَّبُوا» بالبناء للفاعل يدل على أنها هي الأصلية.

(د) وأخيراً، ذكر قصة سؤال أحد الفتيان سعيد بن جبير (تابعى ت ٩٥هـ) عن الآية، فلما وضع له سعيد أن الضمير فى «كذبوا» يرجع إلى المشركين سرى عن الفتى واعتنق سعيداً^(١)

المناقشة :

علينا أولاً أن نلاحظ أن الآية الكريمة مبدوءة بلفظ «حتى». وهذا اللفظ موضوع للتعبير عن انتهاء الغاية أى انتهاء المدة المقدرة لأمر، أو التى استغرقها أمر ما، فآل الحال فيه إلى ما يأتى بعدها. وعلى ذلك فلا بد من معرفة ما كانت «حتى» غاية له هنا أى ما جاءت مبينة لغايته. وأقرب ما يمكن أن يؤخذ منه هذا الأمر المغيا هو الآية السابقة مباشرة للآية التى هى موطن البحث. المبدوءة بـ «حتى» وهى قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى. أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا. أفلا تعقلون» وهذا ما يبدو لنا أن الإمام البيضاوى قد فعله، إذ قال فى صدر تفسيره لعبارة «حتى إذا استيأس الرسل» «غاية مَحذُوفٍ» (يعنى أن «حتى» غاية لأمر محذوف) «دل عليه الكلام» (يعنى مافى الآية السابقة، إذ لا كلام هنا يؤخذ منه المغيا المقدّر إلا مافيهما) «أى لا يغرز (قومك) تمادى أيامهم، فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيسر رسلهم من النصر عليهم فى الدنيا، أو حتى أيسوا من إيمانهم، لانهماكهم فى الكفر - دون رادع أو قارعة تنزل بهم^(٢) وظنوا أنهم قد كذبوا». (أى

(١) ينظر مذاهب التفسير ٤١ - ٤٢ .

(٢) تفسير البيضاوى مع حاشية شيخ زاده ١٠٣/٣ بتصرف يسير وقال شيخ زاده «وقدر

بعضهم (المغيا) بقوله «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم، فدعوا قومهم ===

وحتى ظن الرسل أنهم قد كُذِّبوا). وهنا فسر البيضاوى عبارة «وظنوا أنهم قد كذبوا» حسب القراءات فى لفظ «كذبوا» .

(ولكن علينا - قبل أن نعرف تفسيرات البيضاوى لهذه العبارة القرآنية أن نعرف معنى لغوياً ليس للبيضاوى ولا غيره رأى أو تصرف فيه، لأن هذا هو ماورد عن العرب. فعبارة «كُذِّبَ فلان» بضم الكاف وكسر الذال مخففة أى غير مشددة أى أن الفعل ثلاثى مبنى للمفعول. هذه العبارة معناها عند العرب أن أحداً ما - كَذَّبَ على فلان هذا، أى حدثه بحديث كاذب أو أبلغه خبراً كاذباً. وأما مع تشديد الذال فمعنى العبارة أن فلاناً هذا نسب إلى الكذب أو اتهم بأنه كذاب) ونعود إلى تفسيرات البيضاوى. أولاً: على قراءة (كُذِّبوا) بضم الكاف وكسر الذال مخففة أى غير مشددة.

هنا يتأتى فى مرجع الضمائر فى العبارة احتمالان :

١ - أن يكون مرجع الضمائر كلها للرسل - وهذا هو المتبادر، لأن كلمة

«الرسل» هى أقرب مذكور قبل العبارة. وتفسر العبارة بما يلى :

(أ) أن الرسل ظنوا أن أنفسهم كَذَّبْتَهُمْ حين حدثتهم بأنهم لا بد سَيُنْصَرُونَ على الكفار (أى لأنهم دعاة إلى الإيمان بالله وإلى العمل الصالح، وهذه دعوة حق لا بد أن الله سينصر القائمين بها) وذلك بإيقاع العذاب بالكفار المعاندين. فلما أبطأ وقوع العذاب ظن الرسل أن ماحدثتهم به أنفسهم من وقوع العذاب بالكفار كان توهماً كاذباً.

==== فكذبوهم، وطال دعاؤهم قوهم وتكذيب قولهم أباهم حتى إذا استيأس الرسل « وهذا التقدير الأخير مستخلص من أول الآية الآية (وما أرسلنا...) ووسطها معاً، فى حين أن تقدير البيضاوى من وسطها فقط. والأمر قريب بعضه من بعض. وفى القرطبى ٢٧٥/٩ عبارة تكاد تماثل هذا التقدير الأخير فلعلها التى أشار إليها شيخ زاده).

(ب) أن الرسل ظنوا أن أقوامهم كَذَّبُوهم أى كَذَّبُوا عليهم حين وعدوهم بالإيمان ثم أخلفوا الوعد ولم يؤمنوا .

- وقد ذكر هذين الاحتمالين الإمام البيضاوى. (١)

- ونلاحظ أن هذا الذى ذكر فى (ب) مبنى على أن الكفار كانوا قد وعدوا الرسل أن يؤمنوا . وهذا الوعد مجرد افتراض فالتفسير به ضعيف، وما جاء فى (أ) أيضاً ضعيف، لأن تعليق الرسل أمر نجاح الرسالة بحديث النفس - لا بمعونة الله ومدده هو أمر غريب لا يناسبهم، وإنما يناسب أصحاب الدعوات البشرية، لأن دعواتهم صادرة من عند أنفسهم أصلاً. وهم يقدرُونَ نتائج جهودهم فى دعواتهم حسب توقعاتهم من أثر الظروف المحيطة.

ج - وجاءت فى الطبرى روايات باحتمال آخر لتفسير العبارة «وظنوا أنهم كَذَّبُوا» على هذه القراءة، ومع رجوع الضميرين إلى الرسل خلاصتها أن الرسل بشر، فلها ينسوا من إيمان قومهم وطال البلاء عليهم - بلاء الكفر والعناد من أقوامهم، مع عدم وقوع العذاب بالأقوام ظنوا - أى خامرت نفوسهم الوسواس والخواطر بأن ما وعدوا به من النصر لن يقع. وهذه الروايات ثلاث عن ابن عباس (اثنتان عن ابن أبى مليكة عنه وواحدة عن عكرمة عنه) ومنها اثنتان عن مسروق عن عبد الله بن مسعود (واحدة عن سعيد بن جبير - رضى الله عنهم). (٢)

ونريد أن ننبه أولاً: إلى أن المعنى اللغوى للظن يشمل ما يقع فى النفس من الخواطر وحديث النفس وما إلى ذلك، لأن الظن يستعمل فى

(١) من البيضاوى الموضع المذكور يتصرف .

(٢) هذه الروايات فى تفسير الطبرى (شاكرو) ١٦/٣٠٥ - ٣٠٦ .

« ما يدرك من غير وجه المشاهدة والمعاينة » - كما قال الطبري^(١)، وأريده مافى اللسان عن ابن سيده فى المحكم « الظن شك ويقين، إلا أن ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبير، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا « عِلْم »^(٢) اهـ. (أى يعبر عن عنه بالفاظ من تركيب « علم » لامن تركيبا « ظن »). والأصل الحسى لمعنى الظن ما جاء فى اللسان « الماء الظنون: الذى تتوهمه ولست منه على ثقة » (يعنى تتوهم وجوده فى باطن أرض أو فى بئر مثلاً). « بئر ظنون: قليلة الماء لا يوثق بمائها / لا يدري أفيها ماء أم لا / . وهى البئر التى يظن أن فيها ماء. وذكّن ظنون: لا يدري صاحبه يأخذه أم لا.. والظنون من النساء: التى لها شرف تتزوج طمعاً فى ولدها وقد أسنت»^(٣) فالذى يتوهم ولا يوثق به هو مجرد احتمال. واه، ومثل هذا لا تزيد الثقة فيه عن الخاطر وحديث النفس .

وثانياً: أن هذا النوع من الخواطر وحديث النفس (التى هى مستوى من الظن) كأنه من طبيعة التكوين البشرى عند مقتضياته، فهو لا يُملَك. وقد جاء فى شرح حديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» أراد الشك يعرض لك فى الشئ فتحققه (أى تعدّه حقاً) وتحكم به، وقيل أراد إياكم وسوء الظن وتحقيقه (هو المعنى السابق) فالنهى عن تحقيقه أى عدّه حقاً «وليس النهى عن «مبادئ الظنون» التى لا تُملَك، وخواطر القلوب التى لا تُدفع» اهـ^(٤). وهذا التفسير

(١) عبارة الطبري ٣٠٩/١٦ «أن الظن إنما استعمله العرب فى العلم فى ما كان من علم أدرك من جهة الخبر، أو من غير وجه المشاهدة والمعاينة».

(٢) اللسان (ظن) .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه أيضاً .

للحديث يؤكد ما ذكرنا من أن «مبادئ الظنون» و«خواطر القلوب» تدخلان في دائرة معنى الظن، كما أن هذا التفسير يصرح بأن هذه الخواطر والمبادئ لا تملك ولا تدفع، فهي كما قلنا من طبيعة التكوين البشري. وهذا أيضاً معنى ما كررته الروايات عن ابن عباس أن الرسل كانوا بشراً.

ثم إنه مادام ذلك كله صحيحاً فإن جريان هذه الخواطر في نفوس الرسل لا ينافي إيمانهم ولا عصمتهم. وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة لوقوع مثل هذا من الرسل والصّديقين في حالات الشدة «فَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» الأنبياء ٨٧، «وَبَلَغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا» (الأحزاب ١٠) «وُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ» (البقرة ٢١٤) فهذا التساؤل استبطاء يؤدي - إن طال الأمر - إلى تلك الهواجس. وقد ذكرت بعض روايات الطبري التي ذكرناها عن ابن عباس أن ابن عباس نظّر وقوّى نسبة ذلك الظن إلى الرسل بهذه الآية الأخيرة «وُزِّلُوا»، وذكرت رواية في القرطبي أن ابن عباس قوّى تفسيره ذاك بقول سيدنا إبراهيم «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى» (البقرة ٢٦٠) بمعنى أن تساؤل سيدنا إبراهيم عن الكيفية لا يقدر في مستوى إيمانه كما أن تساؤل الرسل عن النصر لا يقدر في مستوى إيمانهم.

هذا، والقراءة بـ «كُذِّبُوا» سببت إلى ساداتنا على، وأبي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطلحة، والأعمش، ومسروق، والضحاك، وإبراهيم النخعي، ورواه شعبة بن نضاح عن القاسم عن عائشة وقرأ بها من السبعة عاصم، وحمزة والكسائي، ومن الثلاثة أبو جعفر وخلف. وقد رأينا أن تفسيرها بإسناد الظن إلى الرسل روى عن ابن عباس وابن مسعود وابن جبير، لكننا فضلناه حسب ما نقله.

وقد روى هذا الذى فسرنا به الظن عن كثيرين منهم أبو منصور الأزهري (٣٧٠هـ) قال: «إن صح هذا عن ابن عباس فوجهه عندي - والله أعلم - أن الرسل خطر في أوهامهم ما يخطر في أوهام البشر من غير أن حققوا تلك الخواطر، ولاركنوا إليها، ولا كان ظنهم ظناً مطمئناً إليه، ولكنه كان خاطراً يغلبه اليقين» (يعنى يغلبه رسوخ إيمانهم بأن الله سينصرهم). ثم أيد جواز ذلك بقوله ﷺ «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به»^(١) وقد روى مثل كلام الأزهري هذا عن الإمام عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري^(٢) (ت ٥١٤هـ) وكان صوفياً وأبوه عبد الكريم (٤٦٥هـ) كان إماماً صوفياً. وقال الزمخشري (٥٣٨هـ) والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وقمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب» اهـ. وكلام الزمخشري هذا هو عين ما فسرنا به قول ابن عباس. وقد قال الزمخشري عما روى عن ابن عباس «فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال وبهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس - على ما عليه البشرية. وأما الظن الذى هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله...»^(٣).

وبهذا يتبين أن تفسير ابن عباس وابن مسعود وابن جبير وجد توجيهاً مناسباً عند الأزهري، والقشيري، والزمخشري.

(١) من لسان العرب (كذب) وأخذنا نص الحديث عن القرطبي ٢٦٧/٩.

(٢) ينظر تفسير القرطبي ٢٧٦/٩.

(٣) الكشاف (دار المعرفة) ٢٧٨/٢.

لكن أمنا الكريمة السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تقرأ كُذِّبُوا بالبناء للمفعول مع تشديد الذال، وتنفر من معنى القراءة بلا تشديد، وتفسر قراءتها بالتشديد بأن الرسل ظنوا أن المؤمنين بهم كُذِّبوا أى ارتدوا بسبب طول البلاء وتأخر النصر الذى كان الرسل وعدوهم به. (١)

وقد بينا وجه معنى قراءة كُذِّبُوا بالتخفيف. ولعل أمنا الكريمة استشعرت ما يتبادر إلى العامة من ذلك المعنى الذى ذكرناه لتلك القراءة فنفرت منها. والحقيقة أن بعض المفسرين المتأخرين استخدموا ألفاظاً بالغة الجفاء تثير النفور الحاد من ذلك التفسير. فقد جادف «مفاتيح الغيب» فى نقد ذلك التفسير الذى أسلفناه أنه «بعيد» لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان، فكيف يجوز مثله على الرسل؟.. (٢) وقد بينا أن ذلك التفسير ليس معناه نسبة الكذب إلى الله وإنما هو عدم تحقق ما كان متوقعا. ولكن الطبرى، وابن عطية، والفخر الرازى، وابن كثير رفضوا هذا التفسير. (٣)

□ ويرجع إصرارنا على تبين وجه ذلك التفسير الذى اشتهر عن ابن عباس وابن مسعود وابن جبير - إلى أنه الأصل المتبادر، لعودة الضمائر فيه على أقرب مذكور وهو الرسل، فأردنا أن نبين أن له وجهاً جيداً لا يقدح فى مستوى إيمان الرسل، حتى لا يُتَّخذ ذريعة للقدح فى إيمانهم، ومن ثم يتكىء على ذلك القائلون بأن المسلمين هربوا من قراءة متلقاة بسبب أن معناها غير مناسب، واخترعوا قراءة من عند أنفسهم.

(١) ينظر جامع البيان للطبرى (شاكر) ٣٠٦/١٦ - ٣٠٨.

(٢) مفاتيح الغيب (الغد العربى) ١٧١/١٧.

(٣) ينظر جامع البيان ٣٠٦/١٦ والمحزر الوجيز ١٠٢/٩ ومفاتيح الغيب ١٧١/٩،

وتفسير القرآن العظيم (التراث الإسلامى سوريا) ٤٩٧/٢ - ٤٩٨.

د - أما الإمام الترمذى الحكيم (محمد بن على ت ٣٢٠ هـ) فقد وجد لكلام ابن عباس توجيهاً آخر فقال «وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف - بعدما وعد الله النصر - لامن تهمة لوعده الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم، فكانت (الرسل) إذا طال عليهم المدة دخلهم الإيأس والظنون من هذا الوجه»^(١) اهـ وأقول إن هذا تأويل نفيس يبين مصدراً إيمانياً (رفيعاً ومشروعاً) لنسبة الظن إلى الرسل حسب ما جاء فى الروايات المفسرة له بما ذكر عن ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبیر، ولا يشوبه تكلف، ولكن الكذب فيه إنما هو بمعنى تخلف الوعد. وما دام ذلك الوعد كالمشروط، فلا يعد تخلفه عند تخلف شرطه تخلفاً على الحقيقة. وللترمذى الحكيم والقشيرى وزن خاص فى هذا المقام، لأنهما صوفيان، والصوفية الحقيقيون هم أصفى المؤمنين قلوباً وأرقهم مشاعر وأحرصهم على تنزيه الأنبياء عن كل ما يمس كمال إيمانهم، فقبولهم هذا التفسير يعنى أنه لامساس فيه بالأنبياء.

هـ - هناك توجيه خامس للقراءة المذكورة جاء فى تفسير القرطبى - بعد توجيه القشيرى كأنه من عنده. هو أن الفعل «ظنوا» هنا مقصود به المقاربة والإشراف - أى أن الرسل اشتد الأمر عليهم وطال حتى قاربوا أن يظنوا أنهم كذبوا كما يقال بلغت المنزل أى قربت منه.^(٢) وأقول إن هذا المهيع موجود ومعترف به على مستوى الاستعمال الفصيح بل إننا مازلنا نستعمله إلى اليوم. فإذا كنا فى سفر بعيد، ثم عدنا

(١) ينظر القرطبى ٢٧٦/٩ .

(٢) ينظر تفسير القرطبى ٢٧٦/٨ .

حتى اقتربنا من مقارنا نقول « خلاص وصلنا » وربما كان بيننا وبين مقارنا حين ذلك الكلام عشرات الأميال .

لكن فى النفس شيئا من الأخذ بهذا التأويل هنا ، لأن سياق الكلام فيه غاية معنوية ومعها أداة شرط مقصود بها بلوغ الوقت « حتى إذا... » فيكون تأويل الغاية والشرط بالمقاربة بعيدين .

٢ - الاحتمال الثانى فى قراءة « وظنوا أنهم كذبوا » بالبناء للمفعول مع التخفيف فى « كذبوا » أن يكون ضمير ظنوا عائداً على أقوام الرسل ، والمعنى أن أمر التكذيب والإمهال طال على الرسل حتى استياسوا من إيمان قومهم ومن النصر بوقوع العذاب من الله على المكذبين ، وحتى ظن الأقوام أنهم كُذِّبوا أى أن الرسل كَذَّبَتْ عليهم حين أبلغتهم أنهم رسل من الله أو حين أبلغوهم أنهم إن لم يؤمنوا وقع بهم عذاب الله . وهذا التفسير لامشكلة فيه إلا عود الضمير على غير الأقرب . والخطب فى هذا يسير . وهو الذى قدمه الطبرى ورضيه .

ثانياً : قراءة كُذِّبُوا :

- أما قراءة وظنوا أنهم كذبوا بالبناء للمفعول لكن مع التضعيف فلا إشكال فيها . فالمعنى أن الرسل ظنوا أن الذين آمنوا بهم عادوا فكذبوهم أى أن الرسل خشوا ذلك بسبب تأخر النصر ، أو أن الرسل ظنوا أن رسالتهم انتهت إلى أنهم كُذِّبُوا فلا أمل . فالتفسير الأول خاص بارتداد من كان آمن ، والثانى عام يشير إلى ما انتهت إليه الرسالة .

- وتبقى قراءة كَذَّبُوا .

- وأخيرا جاء الطبري بقراءة لمجاهد قدم الطبري لها بقوله «وروي عن مجاهد في ذلك قول هو خلاف جميع ما ذكرنا من أقوال الماضين الذين سميناهم وذكرنا أقوالهم، وتأويلُ خلاف تأويلهم، وقراءةٌ غيرُ قراءة جميعهم، وهو أنه في ما ذكر عنه - كان يقرأ «كُذِّبُوا» بفتح الكاف والذال بلا تشديد. ثم روي عن مجاهد أن المعنى: وظن أقوام الرسل أن الرسل قد كذبوا. ثم ذكر مارجع به مجاهد توجيهه. ثم قال الطبري: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، لإجماع الحجة من قراءة الأمصار على خلافها». ثم أضاف: «ولوجازت القراءة بذلك لاحتتمل تأويلا أحسن مما تأوله مجاهد - وهو: حتى إذا استيأس الرسل من عذاب الله أقوامهم المكذبين، وظن الرسل أي علموا أن أقوامهم قد كذبوا وافتروا على الله بكفرهم»^(١).
- ثانيا: قراءة «كُذِّبُوا» بالبناء للمفعول مع التخفيف أي عدم تشديد الذال قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي من السبعة وأبو جعفر وخلف من الثلاثة المكملين للعشرة، ووافقهم الأعمش من الأربعة^(٢).
- وقراءة «كُذِّبُوا» بالبناء للمفعول مع تشديد الذال قرأ بها باقي السبعة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، والحسن من الأربعة وآخرون^(٣).
- وقراءة مجاهد المذكورة (للمعلوم مخففة) تُسبِت أيضا إلى ابن عباس والضحاك^(٤): ولكن لا أثر لهذا في إثبات كونها قراءة معتمدة .

(١) ينظر الطبري ٣٠٩/١٦ - ٣١٠.

(٢) ينظر النشر ٢/٢٩٦ وإتحاف فضلاء البشر (دار الندوة) ٢٦٨.

(٣) ينظر السابقان والبحر ٣٥٤/٥.

(٤) ينظر البحر ٣٥٥/٥.

ثالثاً: إذا عرضنا ادعاءات جولد تسيهر بترتيب ذكرها على الحقائق التي تَكشَّفت هنا نقول:

١- (أ) ادعاؤه أن القراءة الأصلية هي «كُذِّبُوا» (مبنية للمعلوم مخففة) - وقد كرره صراحة - ليس صحيحاً على الإطلاق. فليس في القراءات أصلى وفرعى. وإنما تُفَضَّلُ القراءة بقوة سندها. والقراءة التي ادعى لها الأصالة باللغة الضعف، ولذا لم تَقَوَّ لتكون من السبع ولا من الثلاث المكتملة للعشر ولا من الأربع المضافة للعشر. في حين أن الذي استقر عليه الأمر هو القراءتان «كُذِّبُوا» مبنية للمفعول مخففة ومضعفة. - فإذا كان هنا مجال للكلام عن قراءة أصلية فهاتان.

(ب) يستحيل أن تكون قراءة «كُذِّبُوا» مبنية للمعلوم هي الأصلية، إذا سلَّمنا جدلاً أن هناك ما هو أصلى وما هو فرعى، حيث لم يَعْرِضْها الطبرى إلى أى من الصحابة، والطبرى حجة في هذا، وإنما اقتصر على عَزَوْهَا إلى «مجاهد» أحد تلاميذ ابن عباس - ولعل من هنا جاء عزوها إليه (أعنى ابن عباس) عند غيره. وإضافة إلى هذا صَبَّ الطبرى عليها صورا من الإنكار: أنها خلاف جميع ما ذكر من أقوال من سبق أن ذكرهم (وأكثرهم ذكراً ابن عباس كما مر)، وتأويل غير تأويلهم، وقراءة غير قراءة جميعهم.. وهى قراءة لا يستجيز الطبرى القراءة بها إلخ. وقد أسلفنا أنها ليست من القراءات المعترف بها بأى مستوى.

(ج) وما حاول به جولد تسيهر نصب ادعائه من تَدَخُّلِ السيدة عائشة للمساعدة فى استبعاد تلك القراءة (الأصلية) حسب زعمه، وكذلك مآصوره من بذل الجهد لإنقاذ هذه القراءة = كل ذلك باطل، لأن السيدة عائشة إنما علقت على قراءة «كُذِّبُوا» مبنية للمفعول مخففة من حيث إنها قد يُفهم منها أن الرسل ظنوا أن من جاءهم بالوحي وأبلغهم عن الله قد كَذَّبهم (أى كذب عليهم). وهذا معنى بالغ القدح فى سلامة الإيمان كما هو واضح، ومن أجله ضاق بهذا

المعنى صدر السيدة عائشة، وصدر مُسلم بن يسار والضحاك^(١). أما قراءة «كَذَّبُوا» (مبنية للمعلوم مخففة) فهي ليست معترفا بها - ولم يحاول أحد إنقاذها. وإنما غاية الفهم السيئ لها أن تأخّر العذاب الذى أنذر الرسل به أقوامهم جعلهم ظاهرياً فى موقف الكاذبين، وجعل نفوسهم فريسة لهواجس عن نتيجة استمرار التأخر. وهذا بالقطع أقل فحشاً فى باب القدح فى الإيمان من الهواجس عن كذب من جاءهم بالوحي وأبلغهم عن الله.

(د) أنه برغم ما يمكن أن تثيره قراءة «كُذِّبُوا» (للمفعول مخففة) من معنى بالغ القدح فى الإيمان أشرنا إليه فى (ج)، فإنها باقية وقوية، وتفسيرها السديد معروف. ولو كانت معانى التنزيه التى اخترعها جولد تسيهر لها دخل فى نشأة أية قراءة أوبقائها ما بقيت هذه القراءة. لماذا سلك جولد تسيهر هذا المسلك والتوى هذا الالتواء؟ نقل الخلاف إلى قراءة «كَذَّبُوا» (للمعلوم مخففة) ونقل أن معناها هو أن الرسل ظنوا بأنفسهم الكذب؟ مع أن الطبرى ذكر لمعناها وجهاً آخر هو أن الرسل استيأسوا من أن يُعَذَّبَ الله أقوامهم المكذبين، وظنوا (هنا بمعنى علموا) أن أقوامهم قد كذبوا وافترخوا على الله بكفرهم بالرسل^(٢)؟

□ التواء الرجل يجعلنى أقول إن جولد تسيهر كان يريد أن يصل إلى أن الرسل كانوا يَشْكُونُ فى صدق ما ادَّعوا، ويعاودهم ما ظنوه هو حقيقة حالهم عند الأزمات. ولاننسى أن إيمان الرسول ﷺ بأنه مرسل من عند الله حقيقة هى مسألة من المسائل التى يثيرها المستشرقون، مدَّعين أن ما يسمى وَحْيًا إنما هو حالة عصبية أو نفسية يتوهم معها الذى يعانيتها أنه رسول من عند الله.

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٦/ ٢٠٠-٢٠١، الخبران ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩.

(٢) نفسه ١٦/ ٣١٠.

٥ - فى قوله تعالى - ذاكراً قول إخوة يوسف لأبيهم متحدثين عن أخيه
يوسف- «أرسله معنا غدا يرتع ويلعب» (يوسف ١٢) ذكر جولد
تسيهر القراءتين فى «يلعب»: بالياء - ويرجع الضمير إلى يوسف،
وبالنون ويرجع إلى جماعة المتكلمين (إخوة يوسف) والمقصود أن
يوسف معهم. ثم زعم جولد تسيهر أن القراءة بالنون هى «الأساسية»
«الأصلية» متكناً على أمرين: أن الزمخشري والبيضاوى ذكراها أولاً
فى تفسيريهما، وأن إخوة يوسف عبّروا بالنون فى حكايتهم لأبيهم ما
زعموا أنه حدث بعد ذلك «إنا ذهبنا نستبق» (يوسف ١٧).

ثم قال جولد تسيهر إن هناك سببا وجيها أدى إلى أطراح هذه القراءة
(بالنون)، هو تنزيه إخوة يوسف عن اللعب، لأنه مقدر لهم أن يصيروا
أنبياء، فلا يليق أن ينسب القرآن إليهم اللعب. وأيد جولد تسيهر إدعاءه
هذا بأن أبا عمرو الذى قرأ الفعل «نلعب» بالنون سئل: كيف يقولون
«نلعب» وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء^(١).

المناقشة: تفنيد كلامه يتضح بما يلى:

أ) ادعاءه أن هناك قراءة أصلية وأخرى غير أصلية كلام لا معنى له،
فليس فى القراءات أصلية وفرعية وإنما هناك ما هو ثابت السند
معترف به من المسلمين وما ليس كذلك. وتقديم أى مفسر ذكر أية
قراءة على ذكر الأخرى لا يعنى أصالتها، فالطبرى - شيخ المفسرين بلا
جدال - قدم القراءة بالياء^(٢) ثم ذكر القراءة بالنون، فالأمر عند
المفسرين هو استيفاء القراءات وما يفسر به النص على حسبها، ومن

(١) ينظر مذاهب المفسرين ٤٢-٤٣.

(٢) ينظر تفسير الطبرى (شاكر) ١٥/٥٦٩.

فضل منهم قراءة فضلها بتوجيهها ويصرح بذلك. كذلك لا حجة -
 لجولد تسيهر في «إنا ذهبنا نستبق» فالتسابق ليس لعباً، بدليل
 أنهم لم يشركوا يوسف معهم فيه بل قالوا بعد العبارة هذه «وتركنا
 يوسف عند متاعنا». وأياً ما كان فنحن لم ننكر أن يلعبوا ولا قراءة
 «نلعب».

(ب) قراءة كلمة «نلعب» بالنون ثابتة تماماً فهي قراءة ثلاثة من الأئمة
 السبعة هم ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو، ووافقهم اليزيدي من
 الأربعة^(١).

(ج) وحسب ما وضع (في ب) فالقراءة لم تُطرح كما زعم جولد تسيهر.
 (د) احتجاجه بكلمة أبي عمرو = قَمْش لا يغنى شيئاً. فكلام أبي عمرو
 جواب مَئِدَانِي، أي بما حضر، في مواجهة من يدعى لهم النبوة.
 فالتوقع أن أبناء سيدنا يعقوب كانوا حينئذ شبانا دون الأربعين، ومن
 المقررات العامة أن النبوة لا تكون دون سن الأربعين وليس لهذا
 استثناء إلا في حالة سيدنا عيسى، والخلاصة - على افتراض صدق
 الرواية - أن أبا عمرو وجد في هذه المعلومة المتاحة رداً لمن يدعى نبوة
 أبناء يعقوب - دون تطرق إلى تحقيق إن كانوا بلغوا مرتبة النبوة في
 أي سن أو لم يبلغوها أبداً.

هـ - نبوة إخوة يوسف أو عدم نبوتهم ليست موضوعنا، ولكن مادام جولد
 تسيهر يتحدث عن اعتقاد نبوتهم كأنه مقررة مسلمة عند المسلمين،
 ويكرر هذا من باب غسيل المخ، فليعلم أن علماء المسلمين وجدوا في

(١) ينظر النشر ٢/٢٩٣، وغاية الاختصار ٢/٥٢٧، والإنحاف (دار النبوة) ٢٦٢-٢٦٣.

أقدس نص ديني وهو القرآن الكريم ثلاث عشرة آية (من الآية رقم ٨ إلى الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف) تحكى أفعالا لإخوة يوسف - الذين يوهمنا أن نبوتهم مُسَلِّمة - استخرج العلماء منها نحو أربعين معصية (منها كبائر العقوق والتآمر على القتل والشروع فيه ومخادعة الله ومخادعة أبيهم والكذب الخ) ^(١). مما يستحيل أن يصدر من أنبياء أو حتى عباد أسوياء .

- كذلك وجد علماء المسلمين أن القرآن الكريم تخطى إخوة يوسف في ذكر أنبياء بنى اسرائيل فذكر يوسف وحده ثم ذكر موسى وهارون وداود وسليمان الخ.

و- يتبين بذلك كله أن فكرة تنزيه إخوة يوسف التي عزا إليها اختيار قراءة «يلعب» واطراح قراءة «نلعب» - (وقد بينا أنه لا اطراح على الإطلاق) هي فكرة وهمية اختلقها جولد تسيهر ليخدع بها قارئى كتابه تثبيتها لمطاعنه على القراءات. وتثبيتها لما ظنه اعتقاداً من المسلمين بصلاح أخوة يوسف. أما القول بنبوتهم فهو أبعد من أوهام جولد تسيهر ومن يغتر بمخادعات اليهود .

(١) ينظر إحياء علوم الدين ٤ / ٣٣٠.

٦ - وفى قوله تعالى - ذاكراً نص ما يقوله اللذان حضرا ميتا فى السفر فأوصى إليهما، ثم اتَّهِمَا بخيانة الوصية واستخلفا وهو أن يُقْسِمَا بالله: «لأنشتري به ثمننا ولو كان ذا قربى ولانكنتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين» (المائدة ١٠٦).

واضح أن قول الشاهدين «ولانكنتم شهادة الله» معناه: ولانكنتم شهادة مستحقة لله عندنا، ومعنى أن الشهادة مستحقة لله أنها مستحقة من أجل إقامة أحكام الله وتطبيق شرع الله، فهى لوجه الله وليست مستحقة من أجل المتوفى ولا من أجل الموصى إليهم ولا من أجل بشرٍ، ثم تختتم الآية بقول الشاهدين «إنا إذا (أى إذا كتمنا شهادة الله) لمن الآثمين» أى الواقعين فى الإثم المحتملين له.

وقد أورد الطبرى معنى «ولانكنتم شهادة الله» حسب ما وضحناه الآن، ثم أورد رواية أن عامر الشعبي قرأ هذه العبارة مع آخر الآية بحيث يكون لفظ «شهادة» نهاية للجملة الأولى، وتبدأ الجملة الثانية بهمزة للقسم داخل على لفظ الجلالة أى «آله إنا إذا لمن الآثمين» والمعنى هو القسم بالله أنهما إذا كتما يكونان من الآثمين. كذلك روى الطبرى قراءة أخرى أو قراءتين تنصبَّان على وصل كلمة شهادة مع لفظ الجلالة. الأولى بتنوين كلمة شهادة منصوبة وضبط لفظ الجلالة بكسر الهاء. وذلك مع وصل ألف لفظ الجلالة، ومع قطعها على الاستفهام. وقال الطبرى إن الذى يحفظه عن قراءة الشعبي هو ترك الاستفهام.

(والطبرى إمام فى القراءات - فهو حجة فى ما يروى منها وما يحفظ).

جولد تسيهر خُيِّل إليه أنه وجد ضالته فى قراءات عامر الشعبي. فاختر منها واحدة، وأَوَّلَهَا إلى (التنزيه) الذى حاول أن يجعله منشأ لبعض

القراءات . فقال «وكأنما بدا لعامر الشعبي أن إيقاع الكتمان على مفعوله الذى هو «شهادة الله» غير لائق، إذ كان ذلك ربما أفاد أن من الممكن كتمان شئ شهيدُه الله نفسه، فتخلص من ذلك هو- أو الشقات الذين ربما اعتمد عليهم - بتكوين لفظ شهادة - على حذف الإضافة، ومد همزة الله على ابتداء جملة جديدة «ولانكتم شهادةً. الله إنا إذا لمن الآمين» أى والله فالاستفهام عوض عن القسم «اهـ.

المناقشة: ونلاحظ ما يلى:

(أ) أن جولد تسيهر فسر التركيب الإضافى «شهادة الله» على أنه من باب إضافة المصدر «شهادة» إلى فاعله أى لانكتم (ما) شهده الله ورآه، ولايد من تقدير (ما) أو نحوها حينئذ، لأن شهادة الله بالمعنى الذى يريده جولد تسيهر معناها شهوده ورؤيته ماجرى. وهذا الشهود وقع من الله حقيقة، ولا تعلق لاستطاعة الشاهدين - ولا أهل السماء والأرض جميعا- به منعاً أو كتماناً أو غير ذلك. إنما الذى يريد جولد تسيهر أن يشول الكلام إليه هو أنهما لا يريدان كتمان (أمر) شاهده الله. وهنا صور جولد تسيهر المسألة كأنها استشعار الحرج من التعبير فحسب، فالتعبير بنفى الكتمان (أى نفى العزم عليه) يتيح- فى ذهنه - أن فى استطاعتها كتمان ما شاهده الله نفسه إذا أرادا، وتصور جولد تسيهر أن الشعبى وجد هذا التعبير غير لائق، فتخلص منه بإنهاء الجملة عند نفى كتمان الشهادة. والبدء بلفظ الجلالة حسب ما ذكرنا قبلا.

(ب) التركيب الإضافى «شهادة الله» إضافة فيه حقيقية محضة بمعنى اللام أى الشهادة التى هى حق علينا لله. فالشهادة هنا هى من أداء الشاهدين لآمن الله عز وجل، ولذا يمكن أن تؤدى وأن تُكتم .

فهذا المعنى لعبارة «شهادة الله» هو المعنى العربى الصحيح، وهو واضح تماماً حتى إنه ليسجى على السنة العامة كثيراً فيقولون: «الشهادة لله. فلان حصل منه كذا». أما الذى جنى إليه جولد تسيهر من قراءة عامر أو غيره فيه لجوء إلى صياغة قليلة - وهى إدخال همزة الاستفهام على لفظ الجلالة عَوْضاً عن حرف القسم^(١)، مع القطع عن الإضافة إلى لفظ الجلالة، وهى ذات أهمية بالغة فى هذا المقام. لأن الله سبحانه يشهد ويعلم كل شىء، والبشر ينكرون ويكتمون كل شىء رغم ذلك. مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٤٠)، ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة ٢٨٣) ... وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ (آل عمران ٧١) بل إن اليهود - قوم جولد تسيهر - يكتمون الكتب التى أنزلها الله إليهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة ١٥٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ (البقرة ١٧٤).

(ج) يستحيل أن يخفى مثل هذا الذى يقع من البشر من الكتمان على العالم الموسوعى الثقة عامر الشعبى (المتوفى بين ١٠٣ إلى ١٠٩ عن نحو ٩٠ سنة) وقد كان مُحَدِّثاً فقيهاً أديباً شاعراً، وقيل عنه إنه كان واحد زمانه فى فنون العلم^(٢)، نعم لا يمكن أن يخفى عليه مثل هذا حتى يستغربه ولو فرضنا جدلاً أنه استغربه أو تحرَّج منه

(١) ينظر الدر المنصور (تح الخراط) ٤/٤٦٨ - ٤٧٠.

(٢) ينظر ترجمة عامر بن شراحيل الشعبى فى تهذيب التهذيب ٦٥/٥ - ٦٩.

فيستحيل أن يتخلص منه باختراع قراءة . حاش لله . فالذى أراغ جولد تسيهر أن ينسبه إليه من استشعار الحرج فى التعبير عن كتمان شئ شهيدته الله - حتى على افتراض صحة تأويل جولد تسيهر - هو من اختلاق جولد تسيهر . وإنما الأمر أن الرجل سمع قراءة سماعا آحاديا فرواها . ولا وجود لمعنى التنزيه الذى ابتدعه جولد تسيهر إلا فى خزانة أكاذيبه .

(د) بل إننى أقول إن جولد تسيهر نفسه لا يمكن أن يخفى عليه وقوع ذلك الكتمان الذى عَدَّه مُحَرِّجاً ، وتعبير القرآن عنه مرات - فى حين أنه يُنْقَبُ فى القرآن وتفسير القرآن وسائر الكتب (ولو من ألف ليلة وليلة)^(١) ليلتقط معلومات عن القراءات ، علَّه يجد شاذة يسميها قراءة ليتخذ منها مطعنا على القرآن الكريم وقراءاته . فهل مثل هذا تخفى عليه نصوص القرآن نفسها ؟ كلا . ولكن خبث الطوية يدفعه للاختلاق .

هـ - لقد قصدنا بما ذكرناه عن (قراءة) عامر الشعبي مجارة جولد تسيهر لمناقشته فى متاجرته بها . فبيّنا أن القراءة بالتركيب الإضافى هى الصحيحة المرادة قرآنيّاً ، وأنها لا تثير شبهة فتحتاج تنزيهاً - حسب ماصور جولد تسيهر . ودليل الأمرين ورود آيات كثيرة فيها نفس المعنى . كما بينا مافى الصياغة التى نسبت إلى عامر الشعبي وغيره من قلة فى اللفظ وضعف فى المعنى . وذلك كله لقطع سبيل المتاجرة أمام جولد تسيهر وكشف تكلفه وتصيده . أما الكلمة الأخيرة فهى أن هذه الصياغة التى تاجر بها ليست قراءة على الإطلاق . فلا هى من السبع ولا من الثلاث ولا من الأربع الشاذة . فلا يجوز الطعن بها على القراءات .

(١) ينظر مذاهب التفسير ص ١٨ هامش (١) . وص ٦١ هامش (٣) .

٧ - فى قوله تعالى - فى قصة يوسف أيضا - ذاكرا قول كبير إخوة يوسف لإخوته «ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» (يوسف ٨١) قال جولد تسيهر إن قراءة «سَرَقَ» (بفتح السين والراء) فيها إقرار بخطيئة بنيامين (= أخى يوسف الشقيق) وإن قراءة الكسائى «سُرِّقَ» (بضم السين وكسر الراء مشددة) صَوِّت النص، وأنقذت سمعة بنيامين المهددة، وإن أبا الخطاب (بن) الجراح قرأ هذه القراءة الأخيرة وهو يُوَمُّ الخليفة المستنصر بالله فى الصلاة، وإن الخليفة أعجب بهذه القراءة وقال (إن هذه القراءة فيها تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب) (١).

(١) ملاحظات:

(أ) أبو الخطاب بن الجراح هذا هو على بن عبد الرحمن وصف بأنه الوزير البغدادي الشافعى إمام مقرئ. قرأ على محمد بن عمر بن بكير النجار و... قرأ عليه أبو محمد سبط الخياط و... (ت ٤٩٧هـ). والخليفة هو المستظهر بالله (لا المستنصر) ولى الخلافة ٤٨٧ وتوفى ٥١٢هـ.

(ب) ورواية «سُرِّقَ» (بالبناء للمفعول - مع تشديد الراء) نسبت فى تفسير الطبرى إلى ابن عباس رضى الله عنهما، وفى البحر إلى أبى رزين والكسائى (٢). فأبو رزين هذا قد يكون الأسدى واسمه مسعود بن مالك. وهو من أهل أواسط القرن الأول. والكسائى هو القارئ المعروف أحد السبعة (ت ١٨٩) لكن قراءته هذه ليست من السبع التى وثقها ابن مجاهد. وفى البحر أيضا أن الضحاك قرأ «إِنَّ ابْنَكَ سَارَقٌ».

(١) مذاهب التفسير ص ٤٤.

(٢) البحر (دار الفكر) ٣٣٧/٥.

ج- كما وضع الآن، فإن «سُرَّق» بضم السين وكسر الراء مشددة ليست من القراءات المعترف بها فهي ليست من السبع، ولا من الثلاث التي تكملها عشرا»^(١)، ولا من الأربع التي تكمل القراءات أربع عشرة^(٢) أى أنها لا تُعَدَّ قراءة عند المسلمين . فأين التنزيه؟ لو كانت القراءة تُختار أو تُترك حرصا على التنزيه كما يزعم جولد تسهير لاختيرت هذه القراءة وثبتت.

(٢) إن القراءات المعتمدة هي الصحيحة المعول عليها. وتأمل سياق الآيات التي نحن بصددھا يُبَيِّن أنها مناسبة للقراءة المعتمدة تماما . فقول إخوة يوسف «وما شهدنا إلا بما علمنا» يناسب تماما قولهم التقريرى «إن ابنك سَرَّق» . أى أنهم يشهدون على ما علموه رؤية حين استُخرج وعاء الملك من متاع أخيه . ثم إن كان هناك أمر غيبى خَفِيَ عنا فأمره إلى الله وهذا معنى قولهم: «وما كنا للغيب حافظين». وهناك بيانات أخرى للمراد بهذه العبارة الأخيرة كلها مقبولة^(٣) . أما قراءة «سُرَّق بالبناء للمفعول فمعناها اتُّهم بالسرقة أو نُسب إلى السرقة أى قيل عنه إنه سارق. والاتهام من باب الظن، ووجود صواع الملك فى متاع أخيه يتخطى الاتهام إلى الحقيقة حسب الظاهر. لأن الاتهام كان قد وجه إليهم جميعاً قبل ذلك. أى حين قال لهم حرس العزيز «أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» ثم حدث إعلان عن مكافأة لمن جاء بالصواع «ولن جاء به جِئِلَ بَعِير» فلما أنكروا وقالوا «وما كُنَّا سارقين» احتُكِم إليهم فى تحديد العقوبة إذا ثبت أنهم كاذبون بأن وُجِدَ الصُّواع فى أمتعتهم، وذلك

(١) ينظر النشر ٢/٢٩٥-٢٩٦، وغاية الاختصار ٢/٥٢٩-٥٣٠.

(٢) ينظر (الإتحاف - دار الندوة الجديدة) ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) ينظر البحر ٥/٣٣٧ سطر ١٠ - ١٨.

تحدّياً من أجل إشهار وقوع السرقة، وقطع سبيل التظلم من العقوبة بعد. فلما وُجد الصواع فى متاع أخيه لم يعد الأمر مجرد تهمة، بل صار سرقة ثابتة - حسب الظاهر، ولذلك استسلموا، ولذلك أيضاً قالوا «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» ولا يمكن أن يقصدوا: إِنْ يُتَّهَمَ بِالسَّرَقِ فَقَدْ اتَّهَمَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ. ثم لذلك قال لهم كبيرهم قولوا لأبيكم «إِنْ ابْنُكَ سَرَقَ» فلا يتأتى بعد كل هذا أن يعبر بما يعنى مجرد الاتهام. إن القول بهذا خروج عن المنطق ومقتضى الحال. ولذلك جاء توجيهه - هذه (القراءة) متكلّفاً^(١) بل إن نُبُو هذه (القراءة) عن السياق على ما تبين الآن يجعل نسبتها إلى ابن عباس موضع شك.

(٣) الخلاصة (أ) أن قول جولد تسيهر إنه حدث تصويب للنص هو كذب، لأن النص باق كما هو لم يعثره أى تغيير من قَبْل ظهور معنى التنزيه المزعوم ومن بعده.

(ب) وأن فكرة التنزيه مختلفة منه ولم تغير فى النص ولم تترتب عليها قراءة معترف بها.

(ج) وأن قراءة أبى الخطاب بن الجراح واستحسان المستظهر بالله لها وهما فى أواخر القرن الخامس ليعنيان شيئاً فى مسألة ثبوت القراءة، واعتمادها، بل إن ذكرهما هنا هو من باب القمّش والخطب الفارغ.

(د) ويبدو كذلك أن جولد تسيهر يريد أن يقنعنا بقداسة إخوة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام، وذلك بتكرار الكلام من ناحية، وبذكر ما يشير إلى هذا من كلام أسلافنا. وقد ذكرنا فى موضع آخر موقف علماء المسلمين من إخوة سيدنا يوسف.

(١) فى البحر ٣٣٧/٥ فى توجيه سُرَق بالبناء للمفعول مضعفة الراء «لم يقطعوا عليه بالسَّرقة، بل ذكروا أنه نُسب إلى السرقة ويكون معنى وما شهدنا إلا بما علمنا من التسريق، وما كنا للغيب أى للأمر الخفى حافظين أَسَرَقَ بالصحة أم دُسَّ الصاع فى رحلة ولم يشعر». والتحليل الذى ذكرناه برقم (٢) يكشف تكلف هذا الكلام.

٨ - فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت ٣) قال جولد تسيهر ما خلاصته أن الفهم البسيط يتبادر إليه أن الله تعالى سيعلم الصادقين والكاذبين بعد الفتن أى الامتحان، كأنه تعالى لا يعلم ذلك دون امتحان، ولا هو الذى قدره وقضاه، ثم زعم أن قراءة منسوبة إلى على والزهرى قصد بها إلى رفع هذه الشبهة، وهى قراءة «فَلْيُعْلَمَنَّ» (بضم ياء المضارعة وكسر اللام) بمعنى فليُعرفن الناس بهم بتعريف ما أو بوسم كل بعلامة: سواد العيون أو كحلها للمصادقين، وزرقتها للكاذبين^(١).

المناقشة :

(أ) القراءة المعتمدة التى زعم جولد تسيهر أنها تثير شبهة توقف علم الله بالأحداث على وقوعها فعلاً = يوجد كثير مثلها فى القرآن الكريم كقوله تعالى:

- «لَاَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» (الأنفال ٦٦).
- «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ» (البقرة ١٤٣).
- «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أُمَدًا» (الكهف ١٢).
- «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ» (سبا ٢٠، ٢١).

- «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ» (محمد ٣١).

- وهناك تسعة مواضع أخرى على الأقل (فى آل عمران ١٤٠، ١٤٢، ١٦٦، ١٦٧، المائدة ٩٤، التوبة ١٦، الحديد ٢٥، الجن ٢٨) أى أربعة عشر موضعاً غير ما ذكره جولد تسيهر.

ولو كان لهذه الشبهة وجود عند أولى الأمر من المسلمين، وكانت القراءة تُتَلَقَّى وتُقْبَل أو تُرَدُّ بناء على ماتشير أو لاتشير من الشبه أو المعانى - حسب ما يريد جولد تسيهر أن يزرع فى نفوس قارئيه - لَعُدَّت هذه الآيات جميعاً.

(ب) التعبير الوارد فى المواضع المذكورة له معناه المعروف عند علماء الإسلام، ولا شبهة فيه. وقد عبّر عنه صاحب البحر بقوله فى الآية التى توقف عندها جولد تسيهر «فالمعنى وَلَيَتَعَلَّقَنَّ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ مَوْجُوداً كَمَا كَانَ مُتَعَلِّقاً بِهِ حِينَ كَانَ مَعْدُوماً»^(١). وتفصيل هذا بعبارة قريبة أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء أزلاً. وكل شىء يقع فى ملكه تعالى - أى الأحداث الكونية والتصرفات الفردية لكل مخلوق - إنما يقع كَمَا عَلِمَهُ سبحانه فى الأزلى تماماً. لكنه سبحانه لا يسجل على خلقه الذين يحاسبون على الأمور التى تصدر عنهم - لا يسجل عليهم تلك الأمور التى يحاسبون عليها بمجرد علمه المسبق بأنها ستقع منهم، وإنما يسجلها عليهم بعد أن تقع منهم فعلاً وحقيقة، حتى تقوم عليهم الحجة، فإذا وقعت فعلاً سجلتها الحفظة واقعاً مشهوداً أى معلوماً وعليه شهود. فيحاسبون حينئذ على أمور وقعت منهم

فعلاً عَلمَها الله كذلك، وَعَلمَتَها الحَفْظَةُ كذلك، وَعَلمَها الذين وقعت منهم كذلك. وهذا معنى واضح لاشبهة فيه، بل هو يؤكد العدل الإلهي. فالكلام عن الشبهة هو من اختلاق جولد تسيهر، لينبئ عليه ادعاءه أن تعدد القراءات ناتج عن تعدد الأنظار البشرية.

(ج) (القراءة) التي ذكرها جولد تسيهر «لِيُعْلَمَنَّ» بضم الياء وسكون العين وكسر العين نُسبت في البحر لعلی بن أبی طالب ولجعفر الصادق (١٤٨هـ) رضى الله عنهم، ونسبت إلى الزهرى في الكلمة الثانية فقط. وأحسن الظن بها أنها قراءة آحاد، لا تُعْتَمَد. فلا هي من القراءات السبع ولا الثلاث المكملة للعشر ولا الأربع الموصلة إلى أربع عشرة^(١). فلا ينبغي أن يباحث فيها جولد تسيهر.

(د) الأرجح عندي أن جولد تسيهر هو الذى أراد أن يشير هذه الشبهة، معتمداً على الفهم السطحي، وظاناً أن علماء المسلمين على مثل سطحيته، وذلك بالإضافة إلى قصده تثبيت ادعاء أن القراءات نشأت أو عُدلت لتُعَبَّرَ عن اتجاهات وآراء بشرية.

(١) ينظر السبعة ٤٩٨، والنشر ٢/٢٤٣، غاية الاختصار ٢/٦١٠، وإتحاف فضلاء البشر

٩ - فى قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة ١١٢).

يقول جولد تسيهر «إن هذا السؤال لا يمكن أن يكون صدر على لسان الحوارين. لهذا قرأ بعضهم - مع اقتسار للتركيب: «هل تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» بمعنى هل تستطيع سؤال ربك - أى أن تجعله يفعل ذلك بناء على سؤالك إياه ؟

المناقشة :

(١) العجب أن جولد تسيهر - الذى يوهنا ببحوثه أنه عليم بأقدس مقدساتنا - يقول إن هذا سؤال لا يمكن أن يكون صدر على لسان الحوارين. وهو يعلم :

(أ) أن سؤال البشر أنبياءهم معجزات برهنة على صدقهم أو طلباً لترسيخ الإيمان عند من آمن منهم هو أمرٌ وارد. بل هو الموقف الأصيل فى مثل هذا المقام .

(ب) بل إن الأنبياء - وهم أرسخ إيماناً من الحوارين - يطلبون ما يزيدهم إيماناً ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ (البقرة ٢٦٠) وسيدنا موسى ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف ١٤٣).

(ج) واليهود قوم جولد تسيهر «سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» النساء ١٥٣ .

٢ - ثم يقول «لهذا (أى من أجل أن ذلك السؤال لا يمكن أن يكون صدر على لسان الحوارين) قرأ بعضهم - مع اقتسار للتركيب «هل تستطيع ربك». ولم يسأل جولد تسيهر نفسه عن مصير القراءة التى تحمل التعبير الذى هو فى نظره (لا يمكن) ، ولا من كلف ذلك البعض

الذى قرأ « هل تستطيع ربك » بتغيير تلك القراءة، وما موقعه من هذه المعضلة .

٣- (أ) لقد بينا (فى رقم ١ هنا) أن الذى زعمه «لا يمكن» هو ممكن وواقع من أنبياء ومن أتباع أنبياء .

ب - القراءة التى أُوهم كلامه أنها نُحِّيت لأنها تحمل تعبيراً (لا يمكن) هى قراءة ستة من الأئمة السبعة أصحاب القراءات التى أجمعت الأمة على صحتها وتواترها. فى حين أنه لم يقرأ بالقراءة (المنقِذَة) إلا الكسائى وحده من السبعة، وقد أدغم لام هل فى تاء تستطيع .

ج - الكسائى لم يقل إنه قرأ قراءته لتجنب المعنى الذى «لا يمكن»، وإنما هذه المقولة هى من اختراع جولد تسيهر لببنى عليها مطعنه على القراءات بأنها تنشأ بتحويل النص إلى ما يُتَصَوَّر أنه المعنى المناسب. وهو فى هذا مبطل تماماً، فالقراءة تؤخذ بالتلقى .

٤ - القراءة التى ادعى أنها غير لائقة = لها أكثر من معنى سديد. فجملة «هل يستطيع ربك» يمكن أن تُفسَّر بما يلى:

(أ) هل يقدر ربك أن يفعل هذا؟ وهذا المعنى نفسه بهذه الصورة التى تبدو جافية يحتمل :

- أن يكون المراد به: هل يقدر بمعنى هل عنده القدرة عليه أو لا يقدر بمعنى أنه يعجز عنه - تعالى الله عن هذا .

- وأن يكون المراد: هل يفعل أو لا يفعل - مع التسليم التام بقدرته تعالى على أن يفعل. قال الطبرى «كما يقول الرجل لصاحبه أتعطى أن تنهض معنا فى كذا؟ وهو يعلم أنه يستطيع، ولكنه إنما يريد أن تنهض معنا فيه»^(١). فالأمر هنا

(١) ينظر الطبرى (شاكر) ٢٦٩/١١ .

راجع إلى مشيئة الله أن يفعل أو لا يفعل - لاإلى قدرته. ثم هو سبحانه لا يُسأل عما يفعل ولا عما لا يفعل .

(ب) «هل يستجيب لك ربك ويطيعك أن تنزل علينا» ^(١)؟ أى فتسأله ذلك. وهذا المعنى ذكره الطبرى أيضاً. والتساؤل هنا معلق بمقام سيدنا عيسى عنده تعالى، ثم لله تعالى مع علو مقام سيدنا عيسى عنده أن يفعل أو لا يفعل، ولكن التساؤل بهذه الصورة هو مما يُتَصَوَّر صدوره من أتباعه .

□ وواضح أن المراد الثانى من (أ)، والتفسير (ب) كلاهما سائغ، ولا محل لادعاء شبهة بينى عليها جولد تسيهر مطعنه .

(٤) أما قراءة الكسائى هل تستطيع ربك فتحتمل (أ) هل لك من المنزلة، عنده سبحانه مايتيح لك أن تسأله ذلك؟ أى فاسأله .

(ب) هل لك من المنزلة عنده سبحانه مايجعله يستجيب لك فيُنزِّل علينا مائدة. كأن إمكان أن يسأله متاح، والتساؤل إنما هو عن الاستجابة . وواضح أن (ب) هنا يطابق - أو يكاد - (ب) هناك فالقراءتان ملتقيتان فيه، ولكل منهما معنى تنفرد به عن أختها هو سائغ أيضاً. فلا محل لما يثيره جولد تسيهر .

١٠- فى قوله تعالى «فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا. إنا خلقناهم من طين لازب. بل عَجِبْتَ ويسخرون»
(الصافات ١١-١٢) يقول جولد تسيهر ماخلاصته - بعد تطويل غير محكم:

(أ) أنه يبدو أن إسناد العجب فى كلمة «عجبت» (بفتح التاء) إلى ضمير المخاطب (وهو محمد ﷺ) هو من قبيل التصحيح والتصويب.
(ب) وأن القراءة الأصلية هى «عجبت» (بضم التاء) للمتكلم وهو الله عز وجل) وهى قراءة الكوفيين وقرأ بها عبد الله بن مسعود، فى حين أن القراءة بفتح التاء هى قراءة المدنيين والبصريين المعتمدة فى أوسع الأوساط وأكثرها .

(ج) وبما أن إسناد العجب إلى الله (حسب القراءة بضم التاء التى ادعى هو أنها هى الأصلية) غير مناسب، لأن العجب إنما يكون بسبب عدم العلم - فإنه جرت محاولات للتخلص من هذا - حسب ما زعم جولد تسيهر :

إحداها: استبعاد هذه القراءة بإجراء «تغيير بسيط» فى حركة التاء من الضم إلى الفتح ليكون المتعجب هو محمد ﷺ. والأخرى: هى تأويل عجب الله عز وجل إلى معنى مجازى .

(د) كل دليل جولد تسيهر على أن القراءة بضم التاء هى الأصلية أن الإمام الطبرى سَوَّى بين القراءتين. فقَبِلَهما على أنهما قراءتان منزلتان على الرسول ﷺ، ومشهورتان فى قراء الأمصار، ولم يفضل واحدة على الأخرى. وبما أن الطبرى جرى على أن لا يقبل من القراءات المخالفة إلا ما كان معناه غير مختلف، وهو هنا يعطى القراءة بضم التاء مكاناً مساوياً للقراءة المشهورة، مؤيداً ذلك بحجج راجحة - رغم أنها توهم ما لا يليق بالله عز وجل = فلا بد أن يكون لهذه القراءة جذر عميق .

□ ثم ذكر جولد تسيهر أن شريحاً القاضي (المتوفى نحو سنة ٨٢ هـ عن نحو ١٢٠ سنة أو أكثر) كان حريصاً على قراءة الكلمة «عجبت» بتاء الخطاب وهو الذى قال «إن الله لا يعجب من شيء» وإنما يعجب من لا يعلم»، وأن إبراهيم بن يزيد النخعي (المتوفى ٩٦/٩٥ هـ) كان يسخر من شريح من أجل هذا .
انتهت خلاصة مازعمه جولد تسيهر بالنسبة لقراءة هذه الكلمة .

المناقشة :

(أ) كلامه عن قراءة أصلية وأخرى غير أصلية = لأصل له . فالقراءتان سبعيتان أى فى أعلى درجات القراءة توثيقاً، قرأ بضم التاء حمزة والكسائي، وهما كوفيان من السبعة، وخلف من الثلاثة المكملين للعشرة (ت ٢٢٩) وهو بغدادى . ووافقهم الأعمش سليمان بن مهران (ت ١٤٨) من الأربعة وهو كوفى . وقرأ بفتح التاء نافع (مدنى)، وابن كثير (مكى)، وأبو عمرو (بصرى)، وعاصم (كوفى)، وابن عامر (شامى)، وهم بقية السبعة، كما قرأها كذلك بقية الثلاثة أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى (ت ١٣٠ هـ)، ويعقوب بن إسحاق الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ) وبقية الأربعة: اليزيدى يحيى بن المبارك (٢٠٢ هـ) بصرى، وابن محيصن محمد بن عبد الرحمن المكى (١٢٣ هـ)، والحسن بن يسار البصرى (١١٠ هـ) .

وهكذا فالقراءتان موثقتان . وإذا قبلنا تصورات جولد تسيهر الفجة، فالقراءة التى زعمها أصلية لم يقرأ بها إلا اثنان من السبعة وواحد من الثلاثة وآخر من الأربعة . وإنما نذكر هذا، لأنه لو كان الأمر بعكسه لهلل جولد تسيهر وقال إن كثرة الأئمة القارئين بها دليل على أصالتها .

المناقشة

(ب) والذي زعمه جولد تسيهر دليلاً على أن قراءة ضم التاء هي الأصلية وهو تسرية الطبرى بين القراءتين - بضم التاء وفتحها - فى الصحة: كلام عجيب ممن يتصدى للقراءات. إذ إن من بدهيات هذا المجال أن القراءات الصحيحة كثيرة ومن أجل ذلك استصفى علماء القراءات المسلمون منها سبعة أكتملت لها أعلى مستويات الصحة واختار العلماء أيضاً قراءات ثلاثاً آخر تضارعها فى علو مستوى الصحة فصارت القراءات المعتمدة عند الأمة عشرة. وهى كلها صحيحة. فكيف يعجب جولد تسيهر لتصحيح الطبرى قراءتين اثنتين، ويقول إنه أعطى القراءة بضم التاء مكاناً مساوياً للقراءة المشهورة (يقصد القراءة بفتح التاء)، ثم يتخذ هذا دليلاً على أنه لابد أن يكون لهذه القراءة بضم التاء «جذر عميق»؟ نعم لها جذر عميق، لكنه لا يعنى أنها الأصلية، كما يدعى جولد تسيهر، لأن القراءة بفتح التاء لها هى أيضاً نفس ذلك الجذر العميق وهو التلقى عن النبى ﷺ.

- وعلى ماتبين الآن تماماً فإنه لم يحدث استبعاد ولا تصحيح ولا تصويب، لأن القراءتين صحيحتان متواترتان من أول الأمر باقيتان حتى يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله «والله مَتِّمُ نُورِهِ ﷺ كره الكافرون».

- محوور (النسبة) التى نصبها جولد تسيهر ليوهمنا أنه حدث تعديل - أو بعبارة «تغيير بسيط» فى حركة تاء «عجبت» بسببها هو أن إسناد العجب إلى الله تعالى يجر إلى شبهة نقص قمس المولى عز وجل، لأنه - كما قال شريح «إنما يعجب من لا يعلم» هذا: المحوور ساقط، لأنه محدود الأثر جداً فى الفكر الإسلامى بحيث يستحيل أن يدفع إلى تغيير النص الأقدس، بدليل أنه قرأ بهذه القراءة بالضم

على وابن عباس وعبد الله بن مسعود ^(١) من الصحابة رضى الله عنهم ولم يبالوا بالمعنى الذى أثر عن شريح .

□ ذلك أن علماء المسلمين واجهوا - منذ نزول القرآن - مثل هذه النصوص القرآنية (والحدِيثية) التى توهم نسبة نقص أو توهم تشبيه الله تعالى بخلقه - بنسبة أمور إليه تعالى يؤخذ منها: كنسبة أسماء أعضاء مادية بشرية إليه سبحانه كالوجه، والعين، واليدين، واليمين، والكف، والأصابع، والساعد والذراع، والساق، والقدم والرجل ^(٢) . أو نسبة أشياء غير مادية كالروح، والنفس ^(٣) ، أو أمور طبيعية في البشر كالضحك، والعجب، والفرح، والاستحياء، والغيرة، والملال... ^(٤) وأشياء أخرى كثيرة وأفعال ينسب مثلها إلى البشر. إن علماء المسلمين واجهوا ذلك كله مواجهة علمية لهم فيها مذاهب منها المرفوض كمذهب المجسمة، ومنها المقبول كالمفوضين الذين يعترفون بنسبة ما نسبته الله إلى نفسه ولا يتعرضون للكيفية، وكالمؤولين الذين يؤولون الوجه بالذات، واليدين بالقدرة... إلخ. وكذلك كل ما قد يشير شبهة نقص أو تشبيه الحق بالخلق .

□ والعجب المنسوب هنا إلى الله تعالى فى القراءة بضم التاء أول بأكثر من تأويل، فيما أن يكون من باب تسمية جزء الشئ باسمه مشاكلة كقوله تعالى «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

(١) ينظر الأسماء والصفات للبيهقى (إحياء التراث بيروت) ٤٧٥ .

(٢) انظر مثلاً الأسماء والصفات للبيهقى عن نسبة الوجه والرجل وما بينهما صفحات

٣٠١، ٣١٢، ٣١٤، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٨ على التوالى .

(٣) نفسه: الروح ٣٦١، النفس ٤٦٢ .

(٤) نفسه ٤٦٧، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٢، ٤٨٣ على التوالى .

ما اعتدى عَلَيْكُمْ» - فسمى رد الاعتداء اعتداء وهو ليس كذلك،
والقرآن ذكر تعجب الكفار في أكثر من موطن ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ
مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجَابٌ﴾ ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (النجم ٥٩) فقال تعالى
﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أى بل جازيت على التعجب. وقد يكون العجب بمعنى
وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً، فيكون معنى قوله «بل عجبْتُ»
أى بل عظم فعلهم عندي. وقد أُوِّلَ أيضاً بأن المتعجب هو النبي ﷺ
- بإضمار «قل» . أى قل يا محمد بل عجبْتُ أنا من قدرة الله. (١)

□ المهم أن علماء الإسلام عرفوا تلك الشُّبُه، وواجهوها بما يفندوها من
آيات التنزيه مثل «ليس كمثله شئ» وبالفكر الواعى ذى المذاهب
المتعددة. لكن ليس من مذاهب علماء الإسلام أبداً أن يحرفوا كلمات
كتاب الله، أو يسقطوا بعضاً منها تخلصاً من تِلْكَمُ الشُّبُه وموهمات
التشبيه. فذَانِكَ: أعنى التحريف والإسقاط أو الإخفاء - خصيصةٌ
دَمَغَ الله تعالى بها اليهود - قوم جولد تسيهر، وأشياعهم ﴿مِنْ
الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء ٤٦)
﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ،
وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (المائدة
١٣- والضمائر لليهود) ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به
موسى نوراً وهدى للناس فجعلونه قراطيس تبدونها

(١) تأويلات العجب هنا ملخصة من الأسماء والصفات للبيهقى ٤٧٥ - ٤٧٦ وفيه أيضاً

إمكان أن يكون التعجب صادراً من ملائكة الله عز وجل .

وتخفون كثيراً (الأنعام ٩١ والخطاب لليهود) والمعنى نفسه منسوب لليهود في سورة المائدة آية ٤١، والبقرة ٧٥..).

□ فالأساس الذى أقام عليه جولد تسيهر ادعاءه جُرْفُ هارٍ لا يقوم عليه شىء.

(د) شريح قاضٍ متفتح يعتز به الفكر الإسلامى. لكنه رغم مواهبه الموسوعية لم يصل فى القراءة إلى أن يُعَدَّ من القُرَّاء. وأقصى قيمة لكلامه هنا أنه اختار قراءة من قراءتين صحيحتين لأن نفسه استراحت إليها، أو لأن معناها انسجم مع توازنه الفكرى، وذلك حقه مادام لم يجمع القراءة الأخرى. وعموماً فإن (الاحتجاج) بكلام شريح هنا هو من القَمَش الذى لا يصلح فى الحجاج العلمى.

١٢- فى قوله تعالى ﴿قال رب احكم بالحق﴾ (الأنبياء ١١٢) يقول جولد تسيهر ماخلاصته أن التحفظ الذى ينبغى أن يراعى فى صياغة الكلام عند صدوره من الأنبياء، ومن هو نحوهم، موجهاً إلى الله تعالى أو عنه = هو الذى دفع أحد ثقات القراء إلى أن يحور هذه العبارة من **رَبِّ احْكُم بالحق** إلى **رَبِّ احْكُم** بالحق، (أفعل تفضيل) - أى ربي أعظم حكماً بالحق من كل حاكم، ليتجنب شبهة طلب النبى ﷺ من الله تعالى أن يحكم بالحق» لأن ذلك الطلب قد يعنى أنه سبحانه يمكن أن يحكم بغير ذلك. (١).

وقد ذكر جولد تسيهر أن «أحد ثقات القراء» المقصود هو الضحاك بن مزاحم .

المناقشة:

١ - فى البحر المحيط لأبى حيان (٢) أن هذه القراءة بأفعل التفضيل نُسبت إلى ابن عباس والجحدري وابن محيصن. والمرجح عندى أن ذكر ابن عباس مبنى على ما اشتهر من أخذ الضحاك عن ابن عباس فى حين أن علماء الرجال ينفون هذا (٣) .. وحتى لو ثبت فلا أثر له كما سيأتى الآن .

٢ - هذه ليست من القراءات فليست من السبع ولا من الثلاث ولاحتى من الأربع الشواذ (٤). وهذا يدل على قيمة نسبتها إلى ابن عباس

(١) مذاهب التفسير ٣٧ - بتصرف .

(٢) ٣٤٥/٦ .

(٣) ينظر ترجمة الضحاك بن مزاحم فى تهذيب التهذيب ٤/٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٤) ينظر مثلاً غاية الاختصار ٥٧٦/٢ والإتحاف (النودة الجديدة) ٣١٢ .

رضى الله عنهما أو غيره. فإن لقراءات القرآن سلاسل متصلة قوية لا تنظر إلى أية رواية منقطعة حتى لو كانت عن صحابى .

٣ - وبالإضافة إلى ما سبق فإنه لا دخل لتوجيه القراءة أو معناها فى ثبوتها، فهى تثبت بالرواية الموثقة (مع استيفاء موافقة الرسم والعربية) بصرف النظر عن وجهها .

٤ - وأقوى من كل ما سبق فى الدلالة على أن تعديل قراءة كلمة «أَحْكُمُ» من فعل الأمر إلى أفعل التفضيل هو قصة مختلفة أو «هَرْج» لا يعبأ به فى ثبوت القراءة أن المعنى الذى ينسب إليه الخلو من التحفظ والحيطه جاء بعينه فى قوله تعالى - على لسان سيدنا شعيب النبى والذين معه «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» (الأعراف ٨٩)، وعلى لسان سيدنا نوح وهو نبى «قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا» (الشعراء ١١٧-١١٨) فكلمة «افتح» هنا وهنا معناها - احكم - فعل أمر. وقد نص فى الآية الأولى على ذكر «بالحق» أيضاً. فهى كالأية التى هى موضع الكلام تماماً. ولا شبهة فى هذه ولاتلك .

٥ - وأخيراً، فإن هذا أسلوب عربى صحيح مستعمل جرى عليه القرآن هنا، حيث قد ينوه فى مقام ما - بالخصيصه التى يتصرف بها - لا غيرها - فيه. فيقال للقاضى مثلاً احكم بالقانون، أو للجندى فى القتال اضرب بالسيف. وهكذا يفهم قوله تعالى «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» فالمدعوبه هنا هو «الحكم»، ولا يكون حكم من الله تعالى إلا «بالحق» لكن التنصيص عليه هنا يخلخل الشُّبُهَة التى رانت على قلوبهم فَيَتَّبِعُونَ أنها ليست من «الحق» فى شىء. ثم إن التصريح بالاحتكام إلى «الحق» يفزع أهل «الباطل»، ويحسم هواجس اليهود فى المؤاخذه .

□ فما أورده جولد تسيهر هنا قَمَشْ لاقيمة علمية له .

١٢- فى قوله تعالى «عَلَّيْتُ الرُّومَ فى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَلَّيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ فى بَضْعِ سِنِينَ» لله الأمر من قبل ومن بعد،
ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله..» كتب جولد تسيهر خمسة وعشرين
سطراً ادّعى فيها أن هناك قراءتين: الأولى: «عَلَّيْتُ» (بضم الغين
وكسر اللام مبنية للمفعول) مع سَيَغْلِبُونَ (بفتح ياء المضارعة وكسر
اللام) مسندة للفاعل. وقال عن هذه إنها هى القراءة المشهورة.
والثانية هى «عَلَّيْتُ» (بفتح الغين واللام) مبنية للمعلوم مع
«سَيَغْلِبُونَ» (بضم الياء وفتح اللام) بالإسناد للمفعول. وقد بدأ
الكلام عما سماه القراءتين بما خلاصته أن القراءات قد تتناقض
معانيها. وختم بتفصيل ذلك «بأن المنتصرين فى القراءة المشهورة هم
المنهزمون فى القراءة المخالفة، والفعل المبني للفاعل فى الأولى مبني
للمفعول فى الثانية. وإذا فهما قراءتان وتأويلان لجملة واحدة من
كلام متعارضان إلى أبعد مدى» انتهى كلام جولد تسيهر. (١)

المناقشة :

١ - بنى جولد تسيهر كلامه كله على أساس أن هناك قراءتين شرحناهما.
والحقيقة العلمية أن هناك قراءة واحدة هى الصحيحة وهى المعتمدة
وهى القراءة التى سماها المشهورة. (فالقراءة) الأخرى ليست من
السبع ولا من الثلاث المكملة لها ولا من الأربع الشاذة. (٢)

(١) مذاهب التفسير ٢٩-٣١ يتصرف للاختصار.

(٢) ينظر السبع لابن مجاهد ٥٠٦ وغاية الاختصار ٦١٣/٢ والنشر ٣٤٤/٢ والإتحاف
للدمياطى (الندوة الجديدة ٣٤٧).

ويذا ينهار كل ما قَمَشَه جولد تسيهر وكون منه مطعناً. وقد قلنا إنه مهما كان من نُسبت إليه القراءة سواء أكان من الصحابة أو ممن هو دونهم فإن الفیصل هو ثبوت الرواية. وهذا الثبوت تكفل به علماء متخصصون في القراءات كلامهم هو الحجة، ولا يعلوه كلام آخر أيّاً كان قائله .

٢ - مما ذكرناه في (١) يعلم أنه لا أثر لنسبة مازعمه جولد تسيهر قراءة ثانية إلى عليّ وأبي سعيد الخدري وابن عباس وابن عمر وغيرهم على ما ذكر أبو حيان^(١). أعنى لا أثر لذلك في ثبوت القراءة. ولا حاجة بنا إلى تمحيص روايتهم لأن الروايات قد بُحِثت ومُحِصّت من قبل وانتهت إلى أن أصح إسناد للقراءة هو قراءات الأئمة السبعة ثم العشرة .

٣ - الوقائع التاريخية التي تتحدث عنها القراءة المعتمدة معركتان حاسمتان من المعارك الكثيرة التي كانت مستعرة بين الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومية في الغرب وهما أكبر إمبراطوريتين كانت تعرفهما الكرة الأرضية حينذاك. وقد وقعت المعركتان في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي وهي العقود التي شهدت ظهور الإسلام. فقد وافقت البعثة النبوية سنة ٦١٠م، ووافقت الهجرة سنة ٦٢٢م. أما المعركتان فإن الأولى منهما هي تغلب الفرس على الروم تغلباً حاسماً سنة ٦١٥م ثم به استيلاء الفرس على بيت المقدس التي كانت - في ذلك الوقت - هي العاصمة الدينية للدولة الرومية (المسيحية)، فاستولى عليها الفرس، وانتزعوا ما يسمى الصليب الأعظم ونقلوه إلى عاصمة الفرس. وهكذا غلبت الروم وهُزِمَت في أدنى الأرض أي أقربها للمسلمين حيث كان

الشام وفلسطين يُعَدَّان أقرب الأراضى الواقعة تحت حكم الروم إلى أرض الجزيرة العربية. وقد حزن المسلمون لهزيمة الروم لأنهم أهل كتاب في حين فرح المشركون بانتصار الفرس عبدة النار .

وهنا نزلت أوائل سورة الروم، وفيها - بعد نبأ هزيمة الروم - بشرى بأن الروم سيَغْلِبُونَ الفرس في بضع سنين كوايِّضَعُ هنا من ثلاث سنين إلى عشر حسب ما قال الأصمعي. فصاح سيدنا أبو بكر بها في نواحي مكة.. فراهن بعضُ المشركين أبا بكر على مئة من الإبل إذا حصل النصر في تسعة أعوام، ثم بدأت الدائرة تدور على الفرس فأحرز الروم سنة ٦٢٢ أول انتصار لهم بعد هزيمة سنة ٦١٥م ثم توالى لهم الانتصارات سنة ٦٢٥م ثم سنة ٦٢٧ في معركة الزاب حيث قرَّ كسرى وخُلِعَ، وصالح ابنه الروم، وردَّ إليهم ما كان الفرس قد فتحوه، وردَّ الصليب، وتمت الغلبة للروم^(١)، وفرح المسلمون بنصر الله الذي منحه الروم الكتابيين .

□ هذه هي الوقائع التي تواردت الروايات عليها^(٢) وفيها تمت الواقعتان في عهد النبي ﷺ. وبها كانت آيةٌ لصدق النبي ﷺ لأنها إنباء عن أمر غيبى دنيوى تخطى حدود الجزيرة العربية. وتلقاه المسلمون والكفار من هذه الحيشية - بكل الجد وتراهنوا عليه، والتزم به طرفا المراهنة التزاماً جاداً، حتى إنَّ من كان يفارق مكة منهما فراقاً خطيراً يلزمه الطوف الآخر بإقامة كفيل يفي له بالخطر إذا كسب فيفعل^(٣).

(١) تحقيق الواقعتين تاريخياً عن الألوسى (دار الفكر) مج ١ ص ٢١/١٧ وعن محاضرات د. عبد الوهاب عزام أمين عام جامعة الدول العربية حيناً من الدهر حسب ما نقل عنه د. عبد الوهاب حموده في كتاب القراءات واللهجات ص ١٩٥ - ١٩٨ .

(٢) وانظر أيضاً السيرة لابن هشام (تح السقا وصاحبه) .

(٣) ينظر البحر لأبى حيان (دار الفكر) ١٦١/٧ . وتفسير الألوسى مج ١١/ ١٧ - ٢١ .

□ وينبغي أن نتنبه هنا إلى أمر يمس التحديد الزمني للمواقف التاريخية فنحن في عصرنا الحاضر - مثلاً - نسمى معركة ١٩٧٣ التي نصرنا الله فيها على إسرائيل معركة ٧٣ في حين أن النتائج الحربية لهذه المعركة نفسها لم تتم إلا عام ١٩٨٨ عندما تحررت طابا آخر بقعة كانت تحتلها وإسرائيل وقبل ذلك كان قد تم الجلاء عن سيناء ماعدا طابا سنة ١٩٨٦. فمن نظر إلى المعركة التي حركت الموقف وكانت بداية لإجلاء إسرائيل عن أرض مصر قال معركة ١٩٧٣، ومن نظر إلى جلاء إسرائيل عن سيناء قال (٨)، ومن نظر إلى تمام هذا الجلاء عن طابا قال ٨٨ - ونحن نحتفل بالمناسبات الثلاث فعلاً. هذا مع أن عصرنا الحديث توفرت له صور من السرعة لم تتوفر في تلك العهود القديمة. فيجب ألا يغيب هذا عن بالنا عند مراجعة التحديدات الزمنية للمواقف التاريخية المعنيتين. بمعنى أن احتساب البضع لا يكون إلا بعد وصول خبر المعركة إلى مكة، ثم إظهار المشركين شماتتهم بصورة أحرزت المسلمين فتزلت الآيات ووصول خبر المعركة في ذلك الزمن قد يستغرق شهوراً أي إلى أن ينكشف الأمر، ويوجد من يفهمه، وتكون له مصلحة في السفر إلى مكة فيبلغ عَرَضاً.

خبر المعركة:

ب - ما قيل عن أحداث أو وقائع تاريخية أخرى تنطبق عليها الآيات لكن مع التصرف في كلمتي «غَلَبْتُ»، «سَيُغْلَبُونَ» بحيث تبني الأولى للفاعل والثانية لمفعول (انتصار الروم في غزوة مؤتة سنة ٦٣٠م) وانكسارهم انكساراً نهائياً في موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م) فالذي ذُكر من (قراءة) بذلك إنما هو مجرد تمثيل أو اقتباس للآية - لا على أنها القراءة وهذا كما نتقّبس الآن قوله تعالى هو آخر دعوانهم أن

الحمدُ لله ربَّ العالمين» (يونس ١٠) فيقول من يختم كلامه منا الآن «وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، فيغير الضمير لينطبق التعبير على حاله. ولن يهولنا نسبة هذا التغيير إلى سادتنا على وأبى سعيد الخدرى وابن عباس وابن عمر ومعاوية بن قرة والحسن حسب ما ذكر أبو حيان،^(١) فقد عرفنا وجهه. ونحن مطمئنون تماماً إلى المعيار الذى اتبع واستُصِفيت به القراءات حسب وثاقتها إلى سبع ثم عشر. وهذه (القراءة) لم تبلغ (كما أسلفنا) أن تكون من السبع ولا من العشر ولا حتى من الأربع الشاذة، فليست حجة علينا، لأنها ليست قراءة .

٥ - بقى ما غمز به جولد تسيهر وهو قوله عن قوله تعالى ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ إن محمداً ﷺ كان يريد أن يعبر عن أمه في قلب الحظ، فالروم الآن مغلوبون. ولن يمضى وقت طويل حتى يصيروا غاليين. هذه هى سنة التاريخ المتقلبة الأطوار» اهـ. وكلامه هذا شاهد آخر على أنه مفلس فى العلم أو هو غلبه حسده وحقده .

فالكلام من الله سبحانه لا من محمد ﷺ والآيات تشهد لنبوته ﷺ وإن رَغِمَ أنْفُ جولد تسيهر. ثم إن عبارة «سيغلبون» وعد ثابت محقق قريب بدليل (أ) استعمال السين التى تعبر عن قرب المدة فى حين أن «سوف» تعبر عن مدة قد تطول إلى عشرات السنين .

(ب) وبدليل عبارة «فى بضع سنين» وقد قلنا إن البضع من ثلاث إلى عشر. فهذا التحديد يقطع فرصة أى مَطل أو تمديد أو تسويق، يلجأ إليه من يُلْقَى الكلام على سبيل التأميل ليتنصل من المسؤولية إذا تخلف الأمل. فهذا التحديد الزمنى ينفى أن الكلام كان على سبيل الأمل .

(١) فى البحر المحيط (دار الفكر) ١٦١/٧ .

(ج) وبدليل استثارة حماس المؤمنين بأنهم يومئذ سيفرحون بنصر الله. وحماس الجمهور خطير العاقبة لا يستشير من يقول الكلام على سبيل الأمل .

(د) وأخيراً بدليل التصريح بأن ذلك وعد من الله. ولنذكر أن هذا الوعد لم يُصَحَّبَ بالمشيئة (إن شاء الله) لأن صاحب المشيئة سبحانه أراد أن يكون الوعد حاسماً .

(هـ) وتوثيق هذا بأن الله لا يُخْلِفُ وعده. حيث عَقَّبَت الآيات بقوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ .

فهل يتصور أحد أن ما يكون بهذا التحديد والتوثيق يُعَدُّ مجرد «أمل» . يستحيل أن يكون الأمل هكذا. إن الأمل رجاء في النفس يتحقق أو لا يتحقق حسب الظروف. أما هذا فهو وعد واضح محدد لازم الوقوع، ومؤكد الإسناد إلى مصدره سبحانه وتعالى، ومحدد الأثر على جمهور الأمة الذين قُدِّمَ إليهم هذا الوعد .

□ ثم لننظر في حامل هذا الوعد ومقدمه للأمة. إنه إمام دولة له عشرات الآلاف من الأتباع يشهدون عليه، بل هو أيضاً نبي صاحب رسالة دينية يتوقف رسوخها على تحقق كل ما يقوله مما يشهد بنبوته. فهل يُجِيزُ موقعه هذا أن يكون (كلامه) هذا - بالصياغة التي فصلنا توثيقها - مجرد أمل قد لا يتحقق فينهار كل شيء. إن ما قاله جولد تسبهر هراء مستحيل حدوثه ويكشف عن حقد وعُزِّيٍّ من مقومات أهل العلم .

ثبت المباحث

٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٢٤-٩	القسم الأول: (الادعاءات وبعض الملاحظات لها)
١٦٤-٢٥	القسم الثاني (تفنيد الادعاءات)
٢٧	الفصل الأول: مخالفاته المنهجية
	١ - معالم المنهج ٢٧
	٢ - مدى التزامه بصحة المعلومة ٣٠
	الغمزات ٣١، موقف عام من الإسناد ٣٢ .
	بدائل الإسناد عند جولد تسيهر:
	الإسقاط ٣٦، القمش ٣٧،
	الجزافيات ٣٨:
	أ - اضطراب النص ٣٨
	ب - رجوع النص إلى كتابة عثمان ٣٩
	ج - الحرية في إنشاء القراءات ٣٩
	د - أخذ القراءات عن الخط ٤١
	٣ - منهج المعالجة عند جولد تسيهر ٤٨
	أ - التعرج ٤٨
	ب - التمويه والمغالطة ٥٣
	ج - الإيهام ٥٩
	د - التناقض ٦٣
	هـ - المحاجة بما ليس قراءات ٦٥

نشأة اختلاف القراءات ٦٩

خلاصة عن نشأة اختلاف القراءات ٨٢

الحجم الحقيقي لاختلاف القراءات ٨٥

مغالطة جولد تسيهر ٨٥

زعم تزايد القراءات بمرور الزمن ٩٣

(القراءات) التفسيرية ٩٨

(القراءات) التنزيهية ١٠٥

الفصل الثالث: مناقشة جولد تسيهر في الأمثلة التي

١٦٤-١٠٩

احتج بها

شهد الله ١٠٩، ما كان لنبي أن يغفل ١١١

بمثل ما آمنتم ١١٥، وظنوا أنهم قد كذبوا ١٢٢

يرتفع ويلعب ١٣٥، ولانكم شهادة الله ١٣٨

إن ابنك سرق ١٤٢، فليعلمن الله ١٤٥

هل يستطيع ربك ١٤٨، بل عجبت ١٥١

رب احكم بالحق ١٥٧، غلبت الروم ١٥٩

رقم الإيداع

٢٠٠١/٧٥٣٩

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-272-353-O